أ. عبد الجليل خالد

الموسيقا العربية والافريقية



منشورات
مجلس تنمية الابداع الثقافي ـ الجماهيرية

هدية إلى
منتدى سماعي
للطرب الأصيل

أبو عاصم
3/1/2011

www.sama3y.net

الموسيقا العربية والأفريقية

وأثرهما في موسيقا العالم

الموسيقا العربية والأفريقية

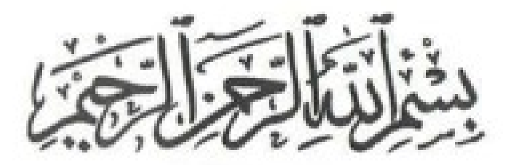
وأثرهما في موسيقا العالم

تأليف

أ. عبد الجليل خالد

الموسيقا العربية والأفريقية وأثرهما في موسيقا العالم

رقم الإيداع بدار الكتب الوطنية (5639)
الترقيم الدولي (ردمك 9- 045- 38 - ISBN 9959)
الطبعة الأولى 2003


بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

كلمة الناشر

" لكل أمة شخصية خاصة

تتكون عبر التاريخ

تتجلى في ثقافتها:

آداباً، وفنوناً، وعلوماً

وأخلاقاً، وشرائع، وعمراناً،

وتقاليد، ونظماً سياسية،

واجتماعية، واقتصادية، وإدارية

والفنون عنوان حضارة الشعوب،

ودليلاً على إسهام الأمم في نمو الحضارات وتطورها "





موسيقى الجاز الأفريقية ...

مقدمة

إن تطور الفن من رسم ثابت على كهوف العصر الحجري، إلى الصور المتحركة على الشاشات المرئية والخيالة، وأشرطة العرض "الفيديو".

ومن الدراما اليونانية ذات المسرح المستدير، إلى الدراما الإذاعية المسموعة والمرئية .

من أنغام القصبة المثقوبة، والطبول والنقر، إلى التأليف السيمفوني...

كل هذه ليست مجرد تطور فحسب للرؤية العاطفية والانفعالية للإنسان فوق هذه الأرض، ولكنه ثمرة لتطور المجتمع وتطور الصناعة والعلم فيه لأن الفن ينمو ويتراجع بسب طبيعة الأوضاع الاجتماعية.

"فالفن هو تعبير عن حالة وجدانية، ومظهر حضاري، يشهد على التطور الاجتماعي للحالة الوجدانية للجماعة"[1].

فالفن تعبير عن مراحل الوضع الاجتماعي القائم وما به من حركة فكرية ونشاطات اجتماعية أخرى (صناعية – زراعية – علمية – الخ..).

---

1 المعجم الجماهيري (مصطلحات النظرية العالمية الثالثة)، المركز العالمي لدراسات وأبحاث الكتاب الأخضر، طرابلس، الجماهيرية العظمى، الطبعة الثانية، 1995 ص 249.

"وتــدل الفنون بصفة عامة على مدى ما بلغه المجتمع من رقي وتقدم وعلى ما يتضمنه من عناصر الذوق العام"[2].

والفن بالضرورة أن يحتضن كل التراث السابق عليه من أشكال وأدوات، ولــذلك فــإن الفــن يعتبر تعبيرا ذاتيا وموضوعيا في ذات الوقت:

ذاتيا: باستعانته بالأدوات والأشكال والوسائل الاجتماعية.

موضوعيا: بما يتخذه من موقف اجتماعي في اللحظة التاريخية المعينة وهذا يحدد دلالته الموضوعية.

وبمعنــى آخــر إن الفن تعبير ذاتي لأنه خلاصة للجهد المبدع الخــلاق الذي يبذله الفنان بمشاعره وأحاسيسه وأفكاره وقدرته على الإبتكار وهذا نتاج عبقريته الذاتية.

وهــو موضــوعي أيضــا من خلال أدواته وخبراته وملابسات حياته، بصفة الفنان كفرد في المجتمع.

إذن فالمجــتمع الذي يعرف قيمة الفنون، ويرعى الفنانين ويوفر الظــروف الملائمة لعملهم، هو مجتمع واع ومتفاعل وقابل للتطور، فالــتقدم لا يكــون بالإنتاج المادي فقط، بل بما يصاحبه من إبداعات جماهيرية تعكس التراث الأصيل للمجتمع.

"فالفــنون عــنوان حضارة الشعوب، فكلما ازداد عدد المنتجين للفــنون، وتوسعت قاعدة المشاركة الفنية كان ذلك دليلا على انتشار الحضارة، وعلى مدى الإسهام في صنعها"[3].

---

2 المعجم الجماهيري، المرجع السابق، ص 249.

3 المعجم الجماهيري، مرجع سابق، ص 252.

إذن فالمجتمع دائما هو الذي تنتج عنه الإبداعات من خلال فرد فـيه هو المبدع الفنان الذي إذا ما توفر له المناخ الملائم أبدع وخلق وابتكر.

والمجـتمع العربي الأفريقي والآسيوي، والمجتمع الأفريقي في القـارة السمراء بجنوبه وشماله، هو الذي قاد حركة الفنون والآداب في العالم.

ففـي وقـت كانـت فيه أوربا تعيش في ظلام دامس كان الفن والأدب في أوج ازدهارهما في المشرق والمغرب العربي، وفى وقت لـم يـتم فيه اكتشاف أمريكا بعد كانت الإيقاعات الأفريقية والأنغام الأفـريقية تمـلأ الدنيا، وما دخلت موسيقى الجاز إلى أمريكا والدول اللاتينية إلا عن طريق الأفارقة.

وما عرف العالم الشعر إلا عن طريق العرب ومعلقاتهم وما من أحـد يسـتطيع أن ينكـر أن الشعر بقصائده وموشحاته ومألوفه هو عربي النشأة.

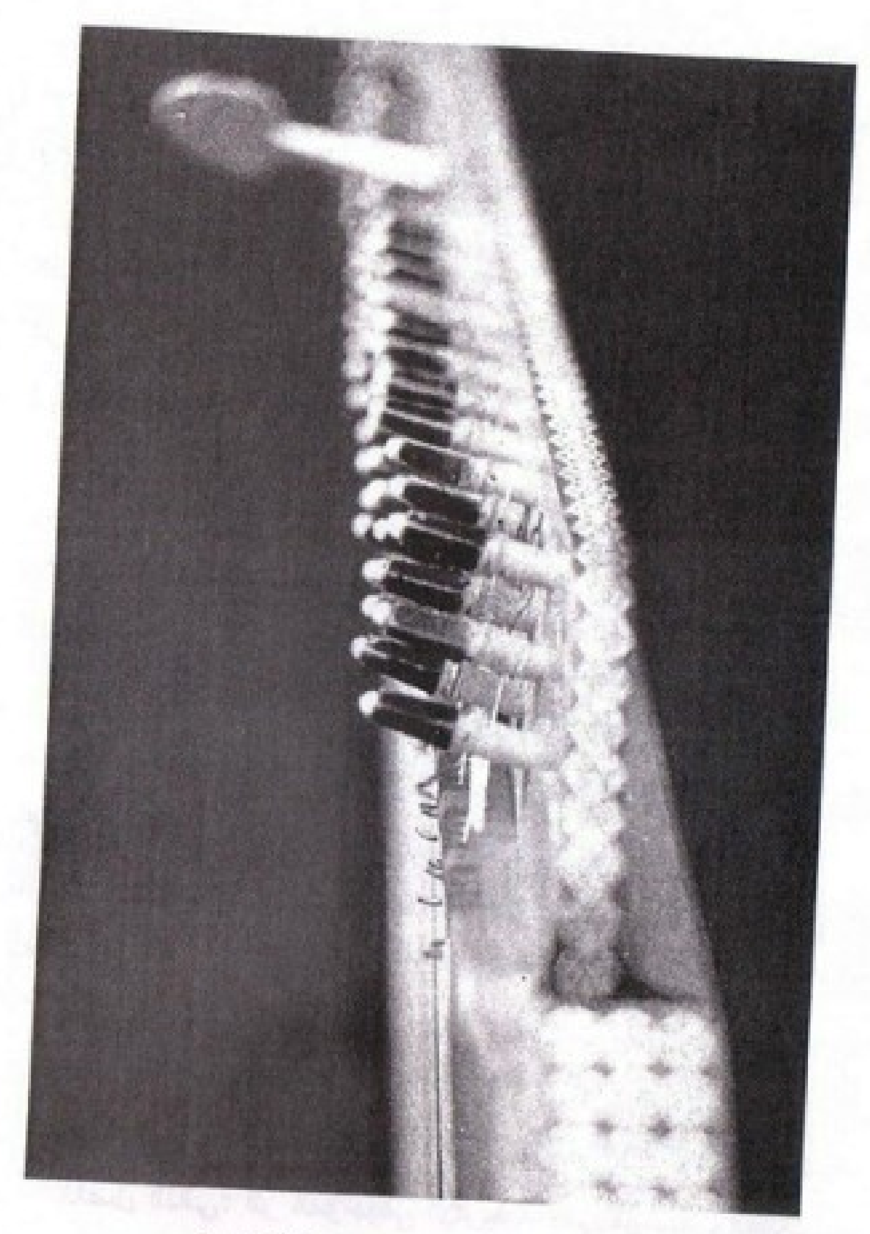
والمـدارس العـربية فـي اشبيليا وقرطبة وغرناطة خير شاهد تاريخـي على أن الفنون الأوربية والأمريكية هي نتاج اجتهاد العرب وعبقريتهم والأفارقة وتراثهم.

وفى الفصول التالية نتناول هذا الموضوع:-

الفصل الأول: اثر الموسيقى العربية على موسيقى العالم.

الفصل الثاني: اثر الموسيقى الأفريقية على موسيقى العالم.

الفصل الثالث: فضل العرب والأفارقة على العالم.



آلة القانون... أوحت بإبتكار آلة البيانو...

الفصل الأول

أثر الموسيقى العربية على موسيقى العالم



الفن الموسيقى والغنائي العربي، من أغنى فنون العالم بالتراث، ذلك لأن العرب احتضنوا حضارات الأمم المجاورة والبعيدة في الشرق عموما، وهذا ما أعطى لهذه الفنون القدرة على الانتشار والتأثير، بما لدى العرب من طاقات فكرية وثقافية، وقدرات علمية كان من النادر أن توجد لدى الشعوب الأخرى، مما ترك للعالم ثروات عظيمة من كنوز العلم والمعرفة.

ولكي نصل إلى إثبات أثر الموسيقى العربية على موسيقى العالم، فلابد لنا بالمرور بالمراحل التي أوصلتها إلى هذه القدرة.

ونبحث هذا في المباحث التالية:

المبحث الأول: الموسيقى العربية قبل الإسلام.

المبحث الثاني: الموسيقى العربية بعد ظهور الإسلام.

المبحث الثالث: الموسيقى الأفريقية في الأندلس.

المبحث الأول

الموسيقى العربية قبل فجر الإسلام

من الجزيرة العربية في اتجاه الشمال كانت قوافل العرب تسافر للتجارة، وما يسهل مسافات الصحراء الطويلة على جمالهم وعليهم إلا التسلية بالغناء الذي كان يسمى "حداء الإبل".

وكان العرب يستمعون إلى أغاني الآراميين والآشوريين والكنعانيين، وباتجاه الجنوب كان العرب يستمعون ويعجبون بموسيقى الأحباش.

ولذلك كان لتلاقي موسيقى الشعوب العربية القديمة بموسيقى وأغاني الشعوب المجاورة للجزيرة العربية اثر كبير في وفرة الأنغام والمقامات والإيقاعات وتطوير الغناء والموسيقى، إلى جانب التأثر بالحضارات البابلية والفرعونية والفينيقية وحضارة سبأ.

ومن هذا التأثر والاستماع والاختلاط تشكلت عند العرب ألوان مختلفة من الإيقاعات والألحان ونظم الكلمات وكذلك الآلات الموسيقية.

فظهرت ألوان عديدة من الغناء بصور إيقاعية ولحنية جديدة، فإلى جانب "الحداء" ظهر "السناد"[4]، وكذلك غناء الركبان،

---

4 هو لون شعبي كثير النغمات والنبرات وهو على ست طرق من الأوزان.

والتغبير (أي التهليل) وتردد الصوت بالقراءة، والنشيد الذي يردد في الحروب والغزوات والحان المأتم والحان الغزل والتراتيل الدينية[5].

وكما سبق للعرب أن تأثروا في هجراتهم المختلفة فقد ازداد تأثرهم بعد تعرضهم لغزوات متعاقبة، "وكان لتحضر بعض المناطق وقيام العمران فيها اكبر دافع للغزاة لكي يخضعوا لحكمهم، ومن هذه الممالك، اليمن، وممالك الشمال (الأنباط، تدمر، الحيرة) والحجاز"[6].

أ. اليمن: كان الفرس والروم يتسابقان على احتلالها لما فيها من الخيرات وأيضا لموقعها الإستراتيجي المهم، وبالفعل خضعت للنشاجي، وبعد ذلك انتصر الفرس على الأحباش وخضعت للفرس. وبذلك امتزجت العلوم والفنون في ارض اليمن بتمازج الحضارات المختلفة، وظهر هذا أيضا على فنون هندسة العمارة.

ب. ممالك الشمال: في هذه الممالك نجد ألوان مختلفة أيضا من الشعر والغناء.

1- الأنباط: لازلنا لحد الآن نستمع إلى القصائد النبطية الغنائية، واصلها من شرق الأردن، وهو غناء شعبي مميز بإيقاعاته وأسلوبه العربي الأصيل.

---

5 نسيب الاختيار (في الفن عند العرب)، دار بيروت للطباعة والنشر، 1955 ص

6 د. احمد الشلبي، (التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية)، ج1، العرب قبل الإسلام.

2- تدمر: لازال للآن يوجد معبد الشمس في تدمر، وهو شاهد ازدهار الفنون، وشهدت منطقة تدمر صراعات مع الفرس والرومان، ولم يعفها موقفها على الحياد من تعرضـــها لغـــزو الرومان، وانتصرت فيها "الزباء" باختـــيارها المـــوت على الهزيمة، كموقف وطني احتجاجـــي على تعرض بلادها للغزو رغم موقفها الحيادي.

وتاريخ تدمر الفني فيه امتزاج رائع بين مدنية تدمر والمدنيات الأخرى، اليونانية والآشورية والفارسية، ووصلت بذلك تدمر إلى قمة الثقافة والعلوم والفنون في عصر ازدهارها الحضاري الغابر[7].

وكانـــت تدمـــر مركـــزا تجاريـــا هاما للذهب والصـــموغ والبضائع الأخرى الواردة إليها من ارض العـــرب، وكـــذلك اللؤلؤ الذي يأتيها من البحـــرين، والمنســـوجات التي تأتيها من الهند، وكذلك الفولاذ والعاج[8].

3- الحيرة وغسان: كـــان ملـــوك الحيـــرة وغسان الذين يُرجعون إلى سلالات يمنية، ولذلك كانت عمارة القصور الرائعة تشـــبه القصـــور والعمـــارة اليمنـــية ومنها قصرا (الخورنـــق والســـدير)، واهـــم دور لعبـــته هاتان

---

7. محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، المجلد (6)، ص 251.

8. محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، المجلد (6)، ص 255.

المملكـتان هو انهما كانتا جسراً عبرت عليه ألوان مـن حضارة الفرس والروم إلى الجزيرة العربية، واهـم هذه الألوان الحضارية هي: الأديان، أنواع المعـارف المخـتلفة، والقـراءة والكتابة والفنون الحربية، والثقافة الفنية المنوعة.

ج. الحجاز: لـم يسـتطع الـنفوذ الأجنبي أن يتوغل في ارض الجزيرة العربية، وظل الحجاز مستقلا، في وقت تم احـتلال جميع الممالك العربية الأخرى من الفرس والروم والأحباش.

وفـي عـام الفيل تمت محاولة من الأحباش، لهدم الكعبة المشرفة، واستجاب الله سبحانه وتعالى لدعاء سيد مكة جد الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه بإنقـاذ الكعبة، فلا قوة لديهم لصد العدوان "فأرسل علـيهم طيـرا ابابيل، ترميهم بحجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول".[9]

وما يلفت الانتباه هو الدعاء الذي كان ينشـــده عبد المطلب وهو يطـــــوف بالبيت منشدا والناس يرددون معه:-

---

9 كما ورد في سورة الفيل.

يا رب لا أرجو لهم سواكا

يا رب فامنع منهم حمـــاكا

إن عدو البيـــت من عاداكا

امنعهم أن يخـــربوا قراكا[10]

فهذا الإنشاد الجماعي يدل على أن الشعر الغنائي المنغم كان موجودا في الحجاز ومعروفا منذ القدم، ولعل ذلك كان مأخوذا عن التراتيل الدينية للأديان الأخرى قبل ظهور الإسلام.

وهذا ينفي الادعاء بأن غناء "الحداء والسناد" فقط هي التي كانت موجودة أو معروفة لدى عرب البادية.

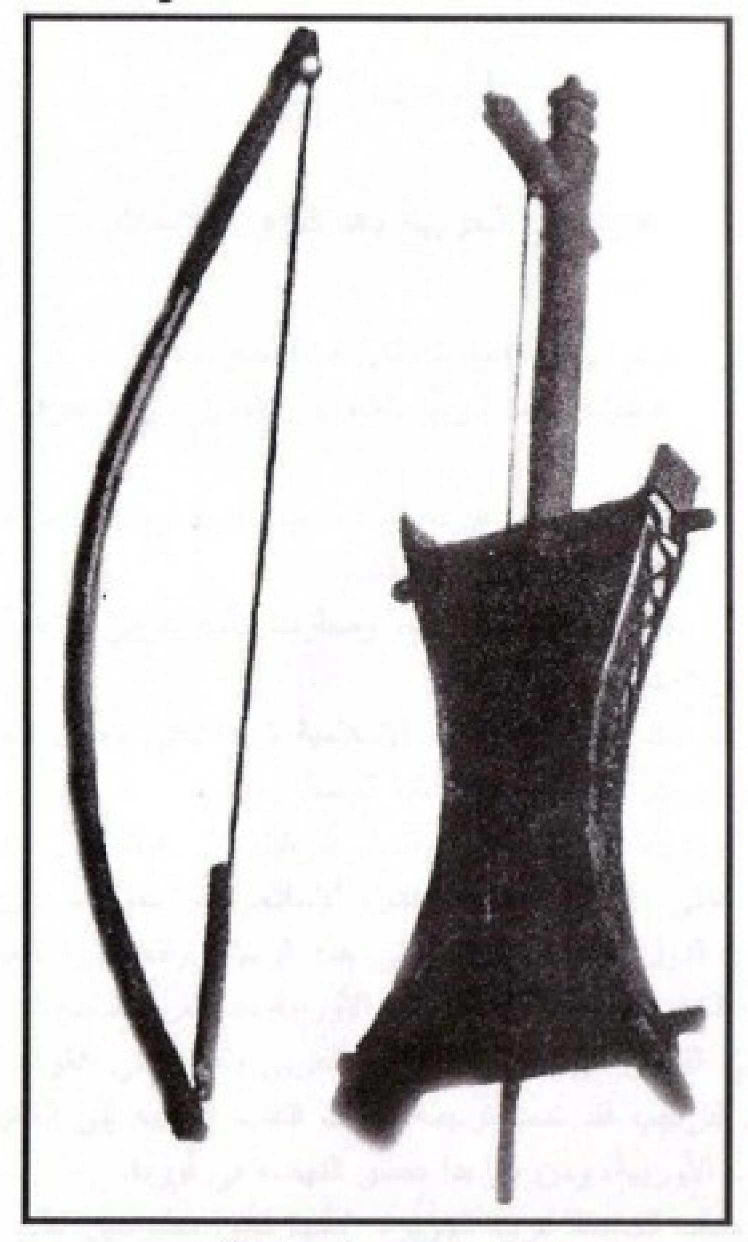
ومما تقدم: نرى أن الموسيقى والغناء العربي قبل الإسلام لم تكن فنون شعب منعزل على نفسه، بل أنه تأثر بالعصر الذي ظهرت فيه " ... وكانت الفنون والثقافة العربية في مستوى لا يقل عن مستوى الموسيقى الأشورية والفينيقية والآرامية .."[11].

وفي العصر الجاهلي كان الموسيقى شاعرا، والشاعر مغنيا، وكان الشاعر إذا لمس في نفسه ضعفا في مستوى صوته لجأ إلى مغنى ليردد عنه أشعاره، وكانت الآلات الموسيقية المنتشرة هي العود، والمزمار، والدفوف، الطبول، وغيرها.

---

10 دائرة معارف القرن العشرين، مرجع سابق، ج1، ص 20.

11 د. احمد الشبلي، (التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية)، ج1، العرب قبل الإسلام.



الربابة العربيـــــة... أم الآلآت

المبحث الثاني

الموسيقى العربية بعد ظهور الإسلام

كان العرب في الجاهلية يتكونون من شعبين وهما:

شعب عدنان: وهم عرب الشمال يقطنون في صحراء نجد والحجاز.

شعب قحطان: وهم عرب الجنوب موطنهم اليمن وحضرموت ومنهم تفرع عرب العراق وبلدان الشام.

وبعد ظهور الإسلام اختلطا، وصارت كلمة عربي، تشمل كل من يسكن المنطقة بكاملها.

وبعد ذلك بدأت الفتوحات الإسلامية شرقا حتى وصل العرب إلى الهند وحدود الصين وبلاد آسيا الوسطى.

وغربا وصلوا إلى مصر وشمال أفريقيا، كما وصلوا إلى جنوب أوروبا حتى الأندلس. وانتشر الدين الإسلامي، والحضارة العربية، وأسسوا الدول الباقية المعالم حتى هذا الزمن. وللحضارة العربية الفضل الكبير على ظهور الحضارة الأوربية منذ القرن التاسع.

في القرون الوسطى كان الفكر العربي يتغلغل في الغرب عن طريق التراجم، فقد تمت ترجمة أمهات الكتب العربية إلى اللاتينية، واللغات الأوربية، ومن هنا بدا عصر النهضة في أوربا.

وصف الجاحظ عرب الجزيرة: "بأنهم كانوا مطبوعين على حب الفروسية، والشجاعة، وانهم شعراء بالسليقة، يتذوقون الفن بإحساس عميق، ويحفظون القصائد والمعلقات عن ظهر قلب، وكان نظم الشعر ميدانا للتسابق بين فحول الشعراء العرب".

كذلك في عام 630م قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية حاكم مصر (المقوقس) وهو الفارسي الأصل أهدى الرسول جاريتين من أقباط مصر، وهن السيدة مريم زوجة الرسول صلى الله عليه وسلم وانجب منها إبراهيم، وشقيقتها سيرين التي أهداها عليه الصلاة والسلام إلى الشاعر حسان بن ثابت، وكانت سيرين تتمتع بصوت غنائي جميل وتعزف على آلة العود، وعن طريقها دخل الغناء المصري والعود المصري ذو الرقبة الطويلة إلى الجزيرة العربية، وتتلمذت على يد سيرين المغنية (عزة الميلاء) التي علمت كل من كان بعدها من المغنيات[12].

وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بدأت عصور الحضارة الإسلامية، وهي:

أ- الخلفاء الراشدين.

ب- الدولة الأموية.

ج- الدولة العباسية

د- دولة الأمويين في الأندلس.

---

12 نالت عزة الميلاء شهرة واسعة وذلك لأنها مزجت بين الغناء العربي والفارسي واستفادت في ذلك من سيرين والمغني نشيط الفارسي ومزجت هذه الألوان جميعا.

أ. **الخلفاء الراشدين:**

- **أبو بكر الصديق رضى الله عنه:** 632 – 634م. واستقر الوضع في عهده على ما كان عليه أيام الرسول صلى الله عليه وسلم.
- **عمر بن الخطاب رضى الله عنه:** تشدد في أمر السماع في البداية 634 – 644م. ولكن مشاغل الخلافة لم تمكنه من وضع تشريعات خاصة بالغناء والموسيقى.
- **عثمان بن عفان رضى الله عنه:** 644 – 656م. انتصر المسلمون في عهده على الفرس، فانتعشت الفنون، واصبح لمحترفيها منزلة كبيرة عند الشعب والدولة.
- **على بن أبى طالب كرم الله وجهه:** 656 – 661م. وقد أبدى رعاية للآداب والفنون، وسمح بتدريس الغناء، وظهر في عهده نوع جديد من الغناء يسمى (المتقن) لأنه كان اعظم في الإتقان اللحني من السابق عليه.

ونتيجة للرفاهية والاستقرار الذي عم الدولة الإسلامية، وانتصارها على الممالك التي دانت للإسلام، اخذ المسلمون ينظرون إلى أمور دنياهم بمنظار اكثر تساهلا وتسامحا عن ذي قبل، وظهر الاحترام لأهل الفن ومحترفيه من العامة ومن الأعيان والأمراء واصبح للأديب والشاعر والموسيقى مكانة مرموقة في المجتمع العربي.

ب. الدولة الأموية: 661 – 750م.

انتقلت الخلافة إلى دمشق، واتسعت الفتوحات فشملت الشرق كله، وامتدت إلى أوروبا، التي كانت لا تزال قابعة في عهود الظلام، وبفضل الإسلام والعرب نهضت حتى وصلت إلى عصور النهضة.

وبالنسبة للغناء انتشر الغناء المتقن الذي جاء به (سائب خاثر)، والذي كان يلاقى التشجيع من أمير المؤمنين (معاوية)، وأسس سائب مدرسة ظهر منها: عزة الميلاء – جميلة – ابن سريج – معبد.

وفى مكة ظهر لون مميز في الغناء والتلحين من المغنى والموسيقى (سعيد بن مسجح) حيث كان له مذهبه الخاص الذي رفض به كل أساليب الفرس والروم.

وتم في هذا العصر تسوية أوتار العود، على الطريقة الفارسية الموجودة للآن وهى وجود الأوتار الغليظة من أعلى والحادة من اسفل، وكان (بن مسجح) أول من طبقها واخذ بها.

ووضع في هذا العصر أيضا (يونس الكاتب) أول المؤلفات في النظريات الموسيقية، وسيرة أهل الفن وصدرت الكتب: كتاب النغم – كتاب القيان[13].

وكانت أهم مصادر الموسيقى العربية في هذه الفترة هي الموسيقى الفارسية، واليونانية، ويظهر اثر الموسيقى الفارسية في الموسيقى العربية في التسميات الفارسية المستعملة في هذا الفن.

ويجب أن نفهم انه ليس معنى ذلك إن اصل الموسيقى العربية فارسي أو يوناني، بل كان العرب هم السباقون لوضع النظريات الموسيقية، ثم جاءت النظريات الموسيقية الفارسية واليونانية

---

13 يونس الكاتب: عاش في المدينة، وكان موسيقيا بارعا، اخذ الغناء عن ابن سريج ومعبد وابن محرز والغريض. وكانت كتاباته نواة لما جاء بعده من مؤلفات.

وامتزجت بها، فبقيت الموسيقى العربية محتفظة بميزاتها الخاصة، والدليل على ذلك هو رفض الملحنين العرب للطرق الفارسية والرومانية التي وجدوها غريبة عن الموسيقى العربية.

ورد في كتاب (إخوان الصفا)[14]:

"... أما الشعوب الأخرى كالفرس والروم فألحانهم وأغانيهم تختلف عن تلك التي وضعها العرب ...".

وورد في (العقد الفريد) لابن عبد ربه:

"... كان لإسحاق الموصلي الذي عاش في القرن الهجري الثاني المقدرة على التعرف على اللحن اليوناني الأصل عند سماعه ...".

وهذا يدل على إن هناك اختلاف بين الألحان اليونانية والعربية.

ويقول الفيلسوف اسحق بن يعقوب الكندي في القرن الثاني الهجري:

"... إن دراسة الموسيقى إنما هي دراسة الفنون عند عدة بلدان مجاورة ...".

وينبغي إن نشير إلى إن الحضارات القديمة قد أخذت عن بعضها احسن منجزاتها العامة والفنية، وهذه حقيقة يمكن الاستناد إليها للقول بأن موسيقى الحضارات المصرية والأشورية والفارسية والبابلية واليونانية والعربية، تشترك في آلاتها ونظرياتها، وهذا يجعل لها طابع قريب التشابه إلى حد ما، فالموسيقى في ذلك العصر كانت لغة واحدة مشتركة، مع تغير لهجاتها في كل هذه الحضارات، فتتميز الواحدة عن الأخرى وتبرز شخصية كل منها دون إن تترك مجالا للخلط بينها.

---

14 تم وضع هذا الكتاب في القرن الرابع الهجري.

وكانت اليونان تتميز بتدوين وتنسيق علومها وفنونها وتدوين علوم وفنون الحضارات الأخرى أيضا، ولذلك فالمخطوطات اليونانية القديمة هي التي حفظت لنا النظريات من الضياع والاندثار.

بالنسبة للبلاد العربية كان موقف الخلفاء الأمويين (السبعة) هو تشجيع الفنون والآداب ورعاية المبدعين، وأقاموا المسابقات الأدبية والغنائية وخصصوا لها الأموال اللازمة، وكان عدد من الخلفاء الأمويين يعزف على آلة العود.

وكانت السيدة سكينة بنت الحسين، تشجع المغنين الذين ينشدون مراثي أهل البيت وأشهرهم (الغريض) وكانت تسمح للناس بحضور هذه الجلسات الغنائية الدينية.

ج. الدولة العباسية: 750 – 847م.

وهذا هو العصر الذهبي الذي انتقلت فيه الخلافة من دمشق إلى بغداد، التي كانت من اجمل واكبر مدن العالم في العصور الوسطى.

وتطورت في هذا العصر كلمة (عربي) فلم تعد تعنى الجنسية العربية، بل شملت كل من كان يتكلم اللغة العربية، ومقيم في ارض الدولة العربية، من أي جنسية كانت.

دامت الخلافة قرنا كاملا، تعاقب فيه على الحكم (تسعة خلفاء) كان عصرهم أرقى العهود اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا وفنيا، وقفزت الحضارة العربية خطوات هائلة واصبح العرب على شغف شديد بمعرفة العلوم والفنون والآداب، وأوصلوا اللغة العربية إلى أن أصبحت هي لغة العلم والثقافة والفن.

وحيث أن الفنون عامة من دلائل الترف في الحياة، فهي لا تستطيع الازدهار إلا حيث يسود الاستقرار والرخاء ويرتقى الفكر ويتم صقل الحضارة.

والموسيقى موادها الأولية إحساس ومشاعر، وأدواتها الأوتار والحناجر، وسلعتها نغم وإيقاع، وهو صناعة، ومشجعيها لا يوجدون إلا في مجتمع متحضر ثقافيا، مزدهر اقتصاديا، يتذوق الفنون، ويحس بالجمال والمحبة للخير والحق والجمال.

في الدولة العباسية (العصر الذهبي) ازداد عدد المقامات والأوزان، وتنوعت الآلات الموسيقية، حتى كان العود قد وصل إلى ثمانية أنواع وهى:

المزهر – الكران – البربط – الموتر – المغنى – الشبوطى – المدرسي والكامل.

وشاع استعمالا ودراسة العزف عليها من عامة الناس لأن الفن والغناء صارت له مكانة جديرة بالاحترام.

في هذا الوقت كانت أوروبا لازالت في عصر الظلمات إذ كانت قوانين بعض بلادها لا تعطى للموسيقيين حق التوريث ومن يقتل موسيقيا لا يلزمه القانون بدفع الدية !!

وفي باريس حتى عام 1292م، لم يدرج الموسيقيون في قائمة دافعي الضرائب، ولم يسمح لهم بالإقامة في غير حي المهرجين واستمر هذا الوضع حتى القرن الثامن عشر !!!.

ومن مآسي هذا العصر أن موسيقارا عظيما مثل (موتسارت) لا يعرف أين دفن حتى الآن لأن الفنان في ذلك الوقت يعامل معاملة الخدم في قصور النبلاء، إذا مات يدفن في مقابر المجهولين!!!.

في هذا الوقت كانت المدنية العربية في قمة ازدهارها، والكتب العربية عن العلوم والآداب والثقافة والفنون العربية[15] ملأت وانتشرت في بلاد فارس والهند في آسيا الوسطى، وظهر في كل البلاد التي دخلتها الحضارة العربية العشرات من العلماء والفلاسفة والفنانين والفلكيين وعلماء الرياضيات والكيميائيين، ورجال الصناعة والتجارة.

وكل هذا جعل من الحضارة العربية منارا بنشر أشعته في أوربا فيحيل ظلماتها إلى تقدم وازدهار.

ومن أعلام وفلاسفة العرب الذين تناولوا في مؤلفاتهم العلوم الموسيقية، وثبتوا أسسها، ووضعوا نظرياتها قبل أن يعرف الغرب شيئا عن ذلك بمئات السنين، نذكر منهم:

1. الفيلسوف العالم اسحق بن يعقوب الكندي:

درس في صباه القرآن الكريم، وفقه الدين، وعلوم المنطق، ودرس العلوم العقلية، وتبحر في علوم اللغة والأدب والفلسفة، ترجم العلوم اليونانية والسريانية والهندية في دار الحكمة ببغداد.

كان الكندي رائد مدرسة شراح الإغريقية وأستاذها الأول بلا منازع.

له مائتين وأربعون كتابا ورسالة (في 17 علما) ومنها عدد يختص بالفنون الموسيقية.

وفى مؤلفاته عن الموسيقى قسم الديوان الكامل إلى اثنتي عشر درجة تنفصل كل منها عن الأخرى بمسافة ونصف (1/2 1 تون).

---

15 جاء في فهرس ابن النديم ذكر الكتاب: كتاب النغم وكتاب الإيقاع، من تأليف الخليل بن احمد أول من كتب بعد يونس الكاتب .. وللأسف أن هذين الكتابين لا يوجدان في أي مكتبة عربية ويقال أن اصلهما موجود باليونان فقط.

وتوصل الغرب بعد عصر الكندي بعدة قرون إلى السلم المعدل وهو لا يختلف كثيرا عن السلم المعدل الذي أتى به الكندي في الأصل.

نظريات الكندي عرفها العرب قديما وانتقلت معهم إلى الأندلس ثم انتشرت في أوروبا بعد ذلك، ومنها نظام التدوين ونسب مواقع عفق النغم بالأصابع بالأشكال البيانية عن الأوتار.

والكندي تعدى بالموسيقى مجال السمع، فهو يخرج من الألحان إلى الألوان، ويشرح طبيعة كل لون، وتأثيره على النفس، ويناظر بينها وبين المقامات.

فالألوان في نظره كالألحان تعبر عن المشاعر النفسية والقوى الحيوية التي توحي بها.

والعطور اسماها الموسيقى الصامتة لأنها تنبه الحواس كالألحان والألوان.

وللكندي كتاب ممتع جدا في فلسفة الفنون الموسيقية، وله دراسات في العلاقة بين الأبراج السماوية وتركيب أجزاء العود، ودراسات في أوتار الآلات الموسيقية وطبائع الكون، وربط أنغام الموسيقى ومقاماتها بالكواكب وأيام الأسبوع.

2. محمد أبو نصر الفارابي 870 – 950م(16):

هو مؤلف كتاب (الموسيقي الكبير) الذي عرض فيه الكثير من المقارنات بين الأبعاد الفيثاغورية والعربية وأعطى نماذج مختارة في المتآلف والمتنافر.

---

16 سمي بالفارابي نسبة إلى مسقط رأسه (فاراب) من بلاد الترك ما وراء النهر.

وقد كتب ابن سينا تعدد الأصوات دون التأثر بأي أحد وكان ذلك في بداية القرن العاشر وبعده بعشرات السنين اتخذت الموسيقى في الغرب طريقها نحو تعدد الأصوات بينما ظل الشرق محافظا على الطابع القديم فانفصلت كل منهما عن الأخرى، بعد أن كانت الموسيقى العربية والأوربية تسيران سيرا متساويا ما قبل هذا العهد.

ومن الباعث لذلك ما تستعمله الكنيسة في التراتيل من اختلاف في الأصوات ثم الأداء الجماعي، وهذا ما أوحى للموسيقى الإيطالي (هوكبال) ليكتب في مؤلفاته النظرية عن تعدد الأصوات وإمكان امتزاج نغمة الأساس بالرابعة أو الخامسة أو الثامنة، ولذلك لقب هذا الموسيقى الإيطالي (أبو الهارموني)[17].

وخصص ابن سينا فصلا خاصا عن الإيقاع شرح فيه أنواعه المختلفة، ووصل إلى أنه في مقدور الموسيقى أن تستخدم من الإيقاع ما لا حصر له. ثم مزج بين الموسيقى والشعر من حيث الإيقاع وتناول الحديث عن التفاعيل والأوزان ووصل إلى أنه هناك ثمانية أنواع رئيسية تتفرع منها شعب وأقسام، وهي:

الهزج – خفيف الهزج – الثقيل الأول – خفيف الثقيل الأول – الرمل – خفيف الرمل – الثقيل الثاني – الماخوري.

كما خصص فصلا للآلات الموسيقية بأنواعها الثلاثة:

آلات النفخ – الوترية – الإيقاعية

وجعل لكل منها أقساما وفروعا، وخصص للعود بحثا مطولا فهو في نظره الآلة المثالية الأكثر استعمالا[18]، وهو أول من افترض

---

17 الهارموني: هو علم توافق الأصوات، أي الاستماع إلى اكثر من صوت في آن واحد تكون مقبولة للأذن، وهو ما يسمى في هذا العصر بالتوزيع الموسيقي.

18 تمت هذه البحوث في موسوعتي الشفاء والنجاة .. لابن سينا.

نظريا إضافة الوتر الخامس حتى يكتمل أداء العود بالدواوين المطلوبة[19].

وكان ابن سينا من كبار علماء الإسلام وفلاسفتهم، وكان لإنتاجه الفكري الأثر الكبير في الشرق والغرب، ولقبه علماء الغرب بارسطو، واطلق عليه العرب معلم الإنسانية الثالث، عاش 58 عاما ألف خلالها 376 كتابا ورسالة. وكان متميزا بالدقة والابتكار في كل مؤلفاته، ووصلت بعض مؤلفاته مثل، الشفاء والنجاة إلى موسوعات بل ودائرة معارف.

ومن إعلام العصر العباسي أيضا:

4. صفى الدين عبد المؤمن الارموى:

عرف كعالم موسيقى، وكان شاعرا، وخطاطا بارعا، له كتب لازالت موجودة للآن منها:[20]

1- **كتاب الأدوار**: ويتكون من 15 فصلا، عن النغم والأبعاد والتأليف والأدوار وآلة العود، والطبقات، والاصطحاب، والإيقاع، وتأثير الأنغام، والعزف.

2- **كتاب الشرفية في النُسب التأليفية**: يتكون من خمسة فصول عن قواعد الصوت، والأبعاد، والأجناس، والأدوار، والإيقاعات.

ومن اشهر الإعلام في العصر العباسي في الموسيقى والغناء:

- **إبراهيم الموصلي 743 – 804 م.**
- **إسحاق الموصلي 767 – 850 م.**

---

19 وسبقه في هذا الكندي، واقترضه الفارابي.

20 الكتب موجودة بمعهد المخطوطات العربية – التابع لجامعة الدول العربية. القاهرة.

- **إبراهيم بن المهدى 779 – 853 م.**

- **أبو الفرج الأصفهاني 807 – 967 م.** وهو الذي وضع كتاب (الأغاني للأصفهاني) المعروف.

وأما عن إعلام الغناء في العصر العباسي فهم كثير، منهم:

يحيى المكي – إبن جامع – منصور زلزل

ومن المغنيات:

بذل – شادية – متيم الهاشمية

وغيرهم الكثير ممن اثروا حركة الفنون الموسيقية والغنائية، بألوان عدة من الألحان وأساليب الأداء المختلفة، بالخبرة التي اكتسبوها من خلال امتزاج الحضارات التي اندمجت بها الحضارات العربية.

د. دولة الأمويين في الأندلس:

في دنيا الفنون عندما نذكر الأندلس، فإن الحديث يكون عن الزَّرياب[21] أو الزِّرياب[22] أو ما عرف بلقب زرياب (أبى الحسن على بن نافع).

وقصة هجرته إلى الأندلس معروفة للجميع، والتي جاءت لمحاولة زرياب الغير مقبولة واللا لائقة بانتهازه الفرصة أمام الخليفة، لاغتصاب عرش الغناء من أستاذه الذي قدمه للخليفة من باب الاعتزاز بأحد تلاميذه، فإذا به ينقلب عليه وهو ما زال في أول مشواره الفني!!.

---

21 الزَّرياب: بفتح الزاى تعنى الطائر الفريد الجميل الصوت الحسن الصورة الأسود اللون.

22 الزِّرياب: بكسر الزاى تعنى الذهب أو ماء الذهب، (المعاجم اللغوية).

ولكن النتائج التي ترتبت على هذه المحاولة، كانت نقطة تحول تاريخية في الاتجاه الموسيقي والغنائي، فلقد هاجر زرياب من المشرق العربي إلى المغرب الأقصى، فكان فنانا ومعلما ومهذبا، جاء إلى العالم الغربي فعلمهم الفنون والآداب والأعراف والتقاليد، والتعامل وفن الموسيقى، وفن الحديث، وفن الاستماع، وكل ما له علاقة باللياقة والذوق والتذوق.

وصل زرياب إلى الأندلس، وبعد محاولات تم استقباله من الحاكم الذي أكرمه ورحب به، وكان سعيدا بمقدمه.

وبدأ زرياب نشاطه في الأندلس، بنشر الموسيقى الشرقية، والعادات الاجتماعية العربية، حتى عمت كل بلاد الأندلس، بل وانتشرت إلى العالم الأوربي كله.

"... وقد كان لزرياب تأثير كبير في نقل كثير من العادات الشرقية السائدة في بلاط بنى العباس إلى بلاد الأندلس، وقد أخذت تلك العادات الحضارية تنتشر في كثير من التأنق والذوق الناعم، وتبدو على الأخص في الأكل، وفى قوانين المأدب والحفلات، وقد كان لقدوم زرياب تأثير كبير في الحياة الاجتماعية والأدبية والفنية..."[23].

وأسس زرياب أول معهد لتدريس فنون الموسيقى، واستدعى من المدينة المنورة مجموعة من الأصوات الغنائية لنشر الموسيقى العربية بأصولها التراثية القديمة.

---

23 د. جودت الركابي، في الأدب الأندلسي.

وبدأ زرياب القرطبي (اسمه الجديد) نشاطه الفني بالمعهد وكان من أول الطلبة لديه أولاده الثمانية وابنتاه: علية وحمدونة، إلى جانب عدد آخر من الطلبة والطالبات.

ووضع زرياب الشروط اللازم توافرها في الطلبة والطالبات، وهى تتلخص في إخضاع الطالب لاختبار قبول وفحصه لموهبته من حيث الإيقاع، وضبط الصوت، فإذا نجح قبل ضمن الطلبة[24].

ونقل جميع أنواع الآلات الموسيقية المعروفة في عصره في بلاد المشرق العربي "... حتى توافر للأندلس ثروة من تلك الآلات لم تعرفها بلد قبله ..."[25]، ومن هذه الآلات:

أ.الآلات الوترية: (العزف بالريشة).

- العود القديم ذو الأوتار الأربعة.
- العود الكامل ذو الأوتار الخمسة، (عود زرياب المبتكر).
- آلة الشهرودة. (وهى تشبه آلة القانون).
- الطنبور، والقيثارة، والمزهر.
- آلة القانون، والنزهة.
- الكنارة أو الجنك (أي الهارب). والجنك من أنواع القانون.

ب. الآلات الوترية: (العزف بالقوس).

- الربابة على اختلاف أنواعها.

---

24 د. محمود الحفني، زرياب موسيقار الأندلس. د. عبد الرحمن الحجر، تاريخ الموسيقى الأندلسية، ص 49.

25 د. محمود الحفني، زرياب ص 110، كتاب مؤتمر الموسيقى العربية الأول، القاهرة، 1932.

- آلة النقر Naker أو Nacaire
- آلة الطبل Timbale أو Timpani

وهناك آلة أطلق عليها زرياب اسم (الشقير) (Echiquier)، وهي من ابتكاره، وهي ذات ملامس سوداء وبيضاء، وهي التي أخذت عنها آلة البيانو في ما بعد.

وأكد هذا الباحث البريطاني (كورت زاكس) وبذلك يكون البيانو آلة عربية[26]. فالشقير هو الاسم القديم لآلة الكلافسان، ويعتبر هذا من أسلاف البيانو وعليه صار تعديل السلم.

"... أما الدور الهام في نقل فن الغناء العربي إلى القصور الملكية المسيحية، فقد قام به الأسيرات اللواتي كانت القصور المسيحية تحرص على الاحتفاظ بهن للموسيقى والغناء والرقص والسمر، وأن ذلك لم يكن مقصورا على القصور الملكية فحسب، بل وقصور الأشراف أيضا، وكان هؤلاء المغنيات يتحلين بحلي الأندلسيات، ويلبسن لباسهن، وكن فتيات جميلات وسيدات جميعهن سمراوات البشرة، سوداوات العيون، يرقصن رقصات أندلسية غاية في الروعـــة، وكن يعاملن الناس معاملة كريمة غاية في الظـــرف، كما أن هؤلاء المغنيات العربيات كن يتمتعن بتقدير وحب عظيمين..."[27].

وقد نشر زرياب الفن الغنائي بين جميع أفراد الشعب القرطبي كبارا وصغارا "وأصبحت قرطبة مسرحا عظيما، يغنى ويعزف ويرقص، وسرعان ما وجدت في قرطبة مجالس للغناء بمستوى لا

---

26 ورد هذا في قاموس Nouveau Diction Naire de Muisques القاموس الموسيقي.

27 الباحـــثة الألمانية د. سيجر يدهوتكة. شمس الله على الغرب فضل العرب على أوروبا (الفصل الخامس فضل زرياب على أوربا).

يقل عظمة وفخامة عن مجالس بغداد، حتى لقد اشترك في أحد تلك المجالس مائتان من المغنين والمغنيات ليضربن بمختلف الآلات الموسيقية والإيقاعية من عيدان وطنابير ومزامير ...»[28].

ووصل صيت زرياب وتأثيره في المجتمع الأندلسي كل أرجاء أوروبا، حتى بلغت شهرة التطور العلمي والثقافي والفني مبلغا جعل ملك إنجلترا (جورج الثاني) يرسل ابنة أخيه الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من بنات الإشراف يرافقهن رئيس موظفي القصر الملكي الذي يحمل كتابا من الملك إلى الخليفة هشام الثالث، ومعه الهدايا والتحف النادرة. ومما جاء في هذا الكتاب (الرسالة)[29]:

"... بعد التعظيم والتوقير، فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعة في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر نور العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أركانها الأربعة ..." !!!!

وجاء في آخر الرسالة:

"... وقد زودت الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص ...".

من خادمكم المطيع

(جورج الثاني)

ملك إنجلترا والغال والسويد والنرويج

---

28 د. محمود الحفني، زرياب موسيقار الأندلس، ص114.

29 د. محمود الحفني، زرياب موسيقار الأندلس، ص167.

ويذكر المؤرخون أن البعثات توالت على الأندلس بعد دخول زرياب إليها بما لا يزيد عن عشرة أعوام حتى بلغ عدد الموفدين لتلقى العلم (700) سبعمائة طالب وطالبة من أسبانيا وفرنسا وألمانيا وبريطانيا.

وتعتبر شخصية زرياب اعظم شخصية في عصره بالأندلس، وكذلك (يحيى بن يحيى) فقد كان لهما اثر كبير في التقدم الحضاري الذي وصلت إليه الأندلس[30].

وتخرج من معهد زرياب للموسيقى عدد كبير من إعلام الطرب أما من أولاده فقد تخرج أربعة فقط وهم: عبد الرحمن وعبد الله ومحمد وقاسم وابنتاه علية وحمدونة واشتغلوا بالفن، وتزوجت حمدونة أحد وزراء الدولة.

وكان ابنه عبد الرحمن قريبا من مكانة والده ولكن غروره واعتزازه الزائد بنفسه لم يوصله لشيء !!

وارتفعت مكانة زرياب اكثر عندما بدا طلبته يتحولون إلى مدرسين ومدرسات يعلمن الأحرار من نساء الأندلس تلك الفنون في حشمة ووقار، واقبل الناس على دراسة العلوم الموسيقية.

وانتشرت المعاهد الموسيقية في اشبيليا وطليطلة وبلنسية وغرناطة، وغيرها من أرجاء البلاد.

وظهرت أنواع جديدة من الغناء وهي الموشحات والأزجال واشتهرت اشبيليا بصناعة الآلات الموسيقية وتصديرها للخارج.

---

30 د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص 232 – 234.

وكان ذلك كله بفضل عربي، تمكن وحده من غزو العالم خلال فترة قصيرة من عمر التاريخ، فماذا كان سلاحه؟ .. العزيمة والثبات والثقة، والدعم المادي والمعنوي من الدولة[31].

والموهبة وحدها لا تكفي إذ لابد أن يساندها العلم. فكانت المعاهد الموسيقية على المستويات العلمية الراقية.

ولا اعتقد أننا في حاجة إلى سرد المزيد من الشواهد على فضل العرب على أوروبا في الثقافة والفنون إلا أنني أود أن أقول أن زرياب قد توفى عام 852 م. وبين زرياب وبيتهوفن وموتسارت اكثر من ألف عام فرق زمني.

ولذلك لابد من المقارنة بيننا نحن العرب وما كنا عليه في القرن التاسع الميلادي، وما كان عليه الغرب الأوربي في القرن الثامن عشر الميلادي من تخلف، تثبته هذه الوقائع:

في عصر أوروبي متقدم 1756 – 1791 هذه الفترة هي التي عاش فيها: موزارت الموسيقار النمساوي والموسيقار بيتهوفن، كان موزارت رغم عبقريته يعمل في قصر الحاكم ويقيم مع الخدم والطباخين ويعامل كما يعاملون ويهان كما يهانون ويأكل في المطبخ مثله مثل الخدم.

وكان الحال كذلك بالنسبة لبيتهوفن، ولو انه كان متمردا على العادات والتقاليد ولا يحب التسلط الفردي، ولذلك عاش فقيرا متشردا مريضا.

---

31 اثبت كل هذا أراء المستشرقين المهتمين بتراث الموسيقى العربية ودورها في العالم .. ومنهم: ليبرا .. بالنثيا .. برفنسال .. كورت زاكس .. دوزى .. غومس.

ومن المآسي أن موزارت عندما مات كانت جثته رهينة في مديونية مالية ولم يسمح بدفنه إلا بعد أن دفع الحاكم على مضض هذا الدين، وتم دفنه بعدها في مقابر المجهولين !!!

قارنوا بين هذا العصر وعصر زرياب الذي يسبقهم بحوالي ألف عام .. إلا يتضح لكم تباين المستوى الحضاري والفكري في مدى تقدير العرب والعصر الذهبي الأندلسي وكذلك العباسي لأهل الثقافة والأدب والفن والعلوم، وما لاقاه عباقرة أوروبا في عصرهم الذهبي عصر الموسيقى الكلاسيكية والرومانتيكية، والتي أساسها جميعا المجد العربي في عالم الموسيقى والغناء والعزف الآلي.

المبحث الثالث

الموسيقى الأفريقية في الأندلس

لقد أعطت الموسيقى العربية لأوروبا بسخاء منذ أن استقر العرب في الأندلس وصقلية وكريت، ووصل هذا العطاء إلي ما حول هذه الجزر.

ولازلنا نلمس حتى اليوم خصائص وطبائع وملامح موسيقانا الشرقية العربية في تلك البقاع ولاشك أن الموسيقى الأوروبية قد استفادت من حضارتنا وأخذت علومنا ولكنها طورتها.

فلماذا لا نوازن ونقارن ونطلع على ألوان الجمال في الموسيقى الأوربية الراقية الآن، ونضيفها إلى ثقافتنا الموسيقية وبالمزج بين أصالتنا و التقدم العلمي ستكون لدينا أعمال عبقرية جديدة قد تعود أوروبا من جديد وتأخذها مرة أخرى، وهذا دليل على تطورنا أيضا.

شبابنا العربي والأفريقي اليوم تستهويهم صيحات الفلامنكو الأسباني، وإذا ما بحثنا عن السبب، نجد الجواب عند فنان أسباني[32]، فيقول: "إن ميزات وخصائص الفلامنكو ذاتها نجدها في بعض الأغاني الأندلسية، وهي أغاني مازالت تحتفظ بالكثير من الموسيقى التي تعرف لحد الآن بأقطار شمال أفريقيا (المغرب، تونس، الجزائر، موريتانيا، ليبيا) وهي موسيقى الغرناطي"، والتي إذا ما تكلمنا عنها فنحن نتكلم في الحقيقة عن موسيقانا العربية بمفهومها

---

32 الشاعر الأسباني فريديريكو كارسيا لوركا 1899-1936ف.

العام، ذلك لأن الموسيقى الأندلسية عموما ما هي إلا نتاج الحضارة العربية، والعناصر البشرية التي أنتجتها وأحبتها وهم العرب والبربر والقوط والصقالية الذين تشكل منهم سكان الأندلس في ذلك الزمان.

والى جانب هذه الملامح الموسيقية الشرقية، نجد في الموسيقى الأندلسية ملامح فنية ذات اصل أفريقي، ساعد على إيجادها تلك العناصر البشرية الأفريقية.

وغير صحيح الاعتقاد بأن الموسيقى الأندلسية متأثرة بالموسيقى الشرقية وحدها، بل كان العنصران الشرقي والأفريقي مشاركان في رسم ملامح الإبداع والإنتاج الفكري معا.

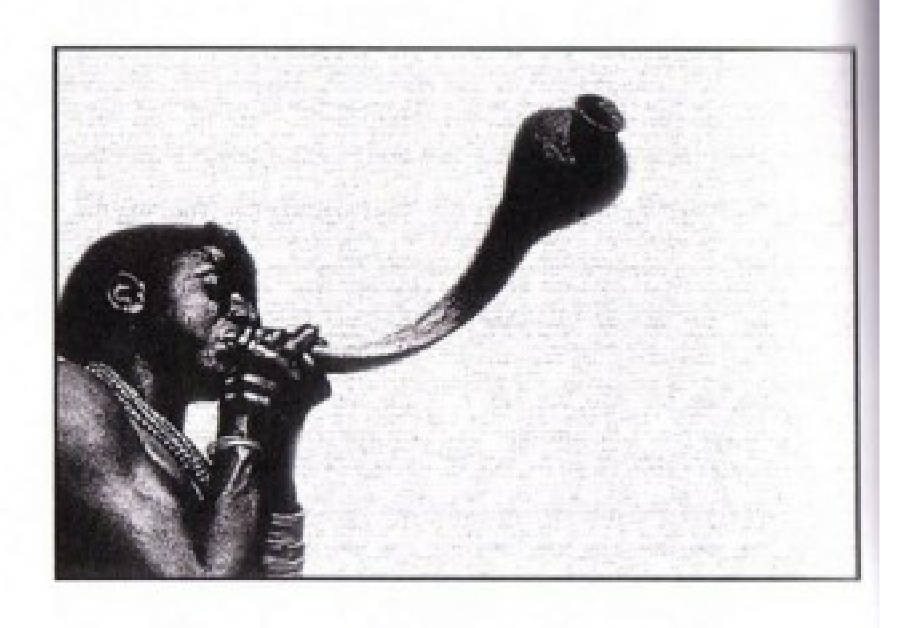
والمعروف أن الجيش الذي رافق القائد طارق بن زياد في عملية الفتح بلغ تعداده اكثر من إحدى عشر ألف من الجنود، دخلت بلاد الأندلس، وكان يضم عشرة آلاف جندي من البربر، واكثر من ألف ومائة جندي من السودان[33]، وبذلك حملت الموسيقى الأندلسية بعض ملامح الموسيقى البربرية والموسيقى الأفريقية، والدليل على ذلك قيام بعض الألحان الأندلسية على السلم الخماسي، وهو وان يكون قد تعرض لبعض التعديلات المحلية إلا أنه بقى بلونه المميز، كما هو في الأغاني الامازيغية الموجودة لحد الآن بجنوب المغرب، وهى قريبة جدا من الحان وموسيقى دول أفريقيا الغربية.

وباندماج عناصر المجتمع الجديد مع بعضهم البعض وترديد الألحان دخل على الموسيقى الأندلسية نوع جديد من الإيقاعات والطبوع (المقامات) العربية والأفريقية.

---

33 د. حسين مؤنس، مجلة الجمعية التاريخية المصرية، المجلد (18)، القاهرة 1974، ص 128. (مقالة عن فتح الأندلس).

وكما نعلم أن الموسيقى العربية والأفريقية من أغنى موسيقى العالم بالإيقاعات، ففي الوقت الذي لا تخرج فيه الموسيقى الأوروبية عن ايقاعين هما الثنائي والثلاثي، نجد مئات الإيقاعات العربية والأفريقية في موسيقانا، والمعروف أن تنوع الإيقاعات يؤدى إلى تنوع تفعيلات الجمل اللحنية الموسيقية، ولعل هذا هو السر في اعتماد الألحان الغربية على جملة واحدة (ميلودى) ويضطرون إلى اغنائه بالهارموني، بينما الألحان العربية والأفريقية كثيرة الجمل اللحنية ولا تحتاج إلى التوزيع الموسيقى (الهارموني) بالدرجة التي عليها الألحان الغربية.



قــرن.. آلة موسيقية من البيئة، أوحت للأوروبيين بإختراع عشرات الآلآت الموسيقية التي تؤدي ذات أغراض هذا القرن في العزف .. !!

الفصل الثاني

أثر الموسيقى الأفريقية على موسيقى العالم

تمهيد

اكثر مظاهر الثقافة انتشارا وشيوعا في المجتمعات الإنسانية الفن بفروعه المختلفة، فلا يمكن أن نجد تجمعا إنسانيا واحدا يخلو من وجود أشكال وأساليب التعبير الجمالي.

ولا نعنى وجود جميع فروع أو أشكال الفنون في المجتمع الواحد، ولا نعنى أيضا المستوى الفني أكان من المتقدم الراقي أم البدائي، ولكن ما اعنيه هو عدم خلو أي مجتمع من لون وشكل وأسلوب من أساليب الفن.

فالفن أحد أهم العموميات الإنسانية في الثقافة الإنسانية ككل، ذلك لأن الإنسان يميل بطبعه إلى التعبير عن إحساسه بالجمال، لأن التعبير الجمالي هو أيضا خاصية أساسية من خصائص الإنسان، وان كانت أساليب وأشكال هذا التعبير تختلف من مجتمع إلى آخر، وذلك بحسب الثقافة السائدة في هذا المجتمع أو ذاك[34].

في المجتمعات المتقدمة يعتبر الفن من اوجه النشاط المتخصصة التي يمارسها أشخاص مبدعون متفرغون تماما للنشاط الفني الذي يحتاج للموهبة والمهارة والقدرة على الإبداع والابتكار، وهذه لا

---

34 مجلة عالم الفكر، المجلد السادس، العدد الأول، أبريل – مايو – يونيو 1975، الكويت، ص4.

تتوفر لمعظم أفراد المجتمع، ولكن ذلك ليس في كل المجتمعات ففي المجتمعات المتخلفة، لا يجرؤ المبدع على طلب التفرغ والتخصص، وذلك لعدم فهم أهمية الفنون وأثرها في تقدم المجتمع، من المسئولين في المجتمع نفسه.!

وفى أفريقيا، لعل ذلك يرجع إلى كون القارة قد عانت الكثير والكثير من الويلات ولم تعرف الاستقرار يوما، وعادة الفن لا يصل إلى درجة التفرغ والاحتراف وشكل المهنة إلا في المجتمعات المستقرة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا.

ونتناول في هذا الفصل الموسيقى الأفريقية وأثرها في الموسيقى الأوروبية والأمريكية. وذلك في المباحث التالية:

المبحث الأول: البداية الموسيقية.

المبحث الثاني: الوظائف الاجتماعية للموسيقى الأفريقية.

المبحث الثالث: الشكل والمعنى في الموسيقى الأفريقية.

المبحث الرابع: الموسيقى الأفريقية إبداع مشترك.

المبحث الخامس: الموسيقى الأفريقية وتمييع الثقافات.

المبحث السادس: الرق .. وطبول تام تام.

المبحث الأول

البدايـــــة الموسيقيـــــة

هناك الكثير من الأشياء التي كان الإنسان القديم يصنعها ويتفنن في صنعها، دون أن يستخدمها بالفعل في حياته اليومية كنحت الأشكال والرسومات على جدران الكهوف وغيرها، فهذه الأشياء الجميلة والغير مفيدة للإنسان في زمنه بشكل مباشر هي دلائل على وجود الدوافع للتعبير الجمالي عند الإنسان منذ فجر تاريخه الأول، ولا ننسى أن هناك علاقة وثيقة جدا بين التعبيرات الفنية والمعتقدات الدينية وممارسات السحر، وهى علاقة لازالت جذورها باقية لليوم في الكثير من المجتمعات، وتتبناها الكثير من الثقافات والحضارات بشكل خاص[35].

وفى المجتمعات على اختلافها، يستعان بالفنون المختلفة في تزيين دور العبادة في مختلف الأديان، واستمر ذلك إلى عهد قريب، والآن في هذا العصر أصبحت التعبيرات الجمالية تتخذ طابعا دنيويا مع بقاء بعض التعبيرات التي نجدها في فن العمارة لازالت سائدة في دور العبادة في الشرق والغرب.

وإذا كان باستطاعتنا أن نخمن لمعرفة الحقبة التي ظهرت فيها بعض الفنون التشكيلية، فإن تاريخ بداية الموسيقى بالذات تعتبر مسألة صعبة التحديد، لأن الشواهد والأدلة المادية في الرواسب أو البقايا

---

35 مثل إحياء تراث وآثار الفراعنة في مصر.

فالموسيقى تستند إلى أساس علمي يتضمن الطبيعة والرياضة، وترتبط بالأدب، وتتأثر بالشعر، وفن العمارة والنحت والتصوير والرقص والتمثيل، وهي تؤثر أيضا في هذه الفنون جميعها، ولكي نفهم الموسيقى فلابد من أن نحاول الربط بين حقائق تاريخ الموسيقى، وتاريخ الروح الإنسانية، والحضارة العامة في مظاهرها المختلفة، وتاريخ الأحوال السياسية والاجتماعية، فلكل ذلك أثرا بالغا على الفن والعلم.

ويظهر هذا بدرجة اكبر من الوضوح في المجتمعات البدائية واقصد بالبدائية التي لازالت في بعض مظاهر حياتها طبيعية ولم تغزها حضارة الزيف الغربية وتقلب نظامها رأسا على عقب، كما هو الحال في اغلب بلدان العالم اليوم.

وسنأخذ وضع الموسيقى في أفريقيا وعلاقتها بالثقافة السائدة في المجتمعات القبلية هناك مثالا.

فبينما نجد في المجتمعات المتقدمة الميل الواضح نحو تقسيم الفنون إلى دوائر ومجالات منفصلة وعزلها عن مظاهر الحياة اليومية:

- الفنون المجردة. - الفنون التطبيقية.
- الفنان المبدع. - الفنان التجاري.
- الفنان المحترف. - الفنان الهاوي.

وغير هذه من التقسيمات، فمثل هذه التمييزات لا توجد إطلاقا في المجتمعات التي توصف بأنها بدائية، حيث يعتبر فيها الفن جزءا لا يتجزأ من الحياة اليومية، بمعنى أنها تتدخل في كل شئ في النشاط اليومي للإنسان.

وبخاصة النشاط الجمالي الذي تلعب فيه الموسيقى والغناء دورا كبيرا وأساسيا.

ومن الأمثلة التي توضح ذلك:

أ- **قبيلة الهوتو في رواندا** تميز ما لا يقل عن 24 نوعا من الأغاني الاجتماعية العامة التي لا تدخل في نطاقها الأغنية الدينية.

وتتناول الأغاني الاجتماعية موضوعات كثيرة:

- فمنها ما يغنيه موسيقيون محترفون لأغراض الترفيه.
- ومنها ما يؤدى في مناسبات الحرب أو تقديم الولاء للزعيم.
- أو الصيد أو الحصاد أو الأشغال العامة.
- ومنها ما يتعرض للأوروبيين بالاستهزاء والسخرية.
- ومنها ما يتحدث عن الموت والحياة[39].

ب- **قبيلة التوتسي في رواندا أيضا** ولها الكثير من الأغاني التي تتناول مختلف الموضوعات حتى السياسية منها[40]، فالطبول عندهم تعتبر رمزا للقوة السياسية، بل أن الدف الذي يطلق عليه عندهم اسم (كالنجا) يعتبر دفا مقدسا، وشعارا للسيادة والسلطة وحماية المجتمع من الخطر، ولذا فانه لا يقرع إلا في مناسبات خاصة، بل أنه يتمتع بمنزلة اجتماعية عالية، وله حقوق تماثل حقوق الملك نفسه في بعض الأمور، فالطبول تقرع على شرف ذلك الطبل، كما أن الناس يصفقون له ثلاث مرات حين يمرون أمامه، ويدهنونه

---

39 بلسكوم وهوسيكوفيتز، الثقافة الأفريقية، دراسات في عناصر الاستمرار والتغيير، 1965، ترجمة عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت 1966، ص 19.

40 الثقافة الأفريقية، المرجع السابق، ص 103، من الترجمة العربية.

بالزبدة وبدم أنواع معينة من الثيران تذبح كقرابين، بقصد وقايته من التلف.

ج- قبيلة بمبارا **Bambora** فهذه القبيلة تسند بعض الرموز إلى الآلات الموسيقية ذاتها بحيث تمثل تلك الآلات بعض صفات الآلهة أو بعض الخصائص الإنسانية، وهم ينظرون إلى القيثارة على أنها ترمز إلى الإنسان، أي السلف الأول الذي انحدرت منه القبيلة كلها.

وكتبت في هذا عالمة الانثروبولوجيا الفرنسية **Viviana Paques** فيفيانا باك في كتابها عن البمبارا، وقالت:

"إن الصندوق المستطيل في هذه الآلة الموسيقية يمثل قناع كومابانا -السلف الذي أوتى الكلمة- وترمز القطعتان الجانبيتان وأسنانه والأوتار الثمانية إلى -كلماته- وترمز القيثارة كلها إلى -ضريحه- ويرمز القضيبان اللذان يقطعانها عرضا إلى -السلفين الثاني والثالث- اللذان رافقاه عند موته -ويمثل الصندوق كذلك وجه الكاهن العراف وضريحه- ويمثل القضيبان ساقي الذرة اللذين غرسا في المكان الذي دفنت فيه الجثة، وفى نهاية مقبض القيثارة توجد أجراس نحاسية تلعب دورا يجمع الناحيتين الفنية والدينية، ويشبه دور الأجراس المثبتة على لوح الطبل ...".

"ويمثل كل صوت يحدثه كل وتر من الأوتار الثمانية نوعا من الصلاة، ويشد الكاهن العراف الأوتار كلا على حدة بحسب رتبتها...".

وتتصدر القيثارة احتفالات التضحيات ومراسيم التطهير والمعالجة والتنقية والتكريس، وتلعب كذلك دورا هاما في التأملات الفردية، وتعتبر نغماتها العالية الحادة سماوية، ويعتقد أنها ترمز إلى

الوفرة، أما نغماتها الجهيرة المنخفضة الحدة فتدل على أشياء دنيوية وترمز إلى النقص.

وتستخدم القيثارة في مناسبات مختلفة كالإعلان عن الحل والترحال، والخصب والقحط، ودعوة الناس إلى الامتثال للأوامر، وقد توضع القيثارة بهدوء بجوار مستنقع حيث يدل وجودها على السلام والطمأنينة!!.

"وقبل أن يبدأ العازف بالعزف على القيثارة يدنو بفمه إلى فوهة صندوقها، ويهمس مخاطبا سيد الكلمة بالعبارة التالية: (والآن جاء دورك، فهلم نظم العالم)"[41].

41 باسكوم وهرسكوفيتز، الثقافة الأفريقية، مرجع سابق، ص 107-108.



هذه نقوش قديمة وُجدت في الجبال الأفريقية.. وهي توثيقية لآلات موسيقية وترية ونحاسية وآلات قرع إيقاعية.

لم يستطع الأوروبيون سرقتها لأنها ثابتة وراسخة رسوخ جبال أفريقيــا..!

التعرف بدقة على كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية، وأنماط السلوك والقيم التي كانت سائدة في المجتمع[42].

د - كما تم توظيف الموسيقى في أفريقيا لنشر القوانين والأوامر عن طريق الغناء، والاتصال بين قبيلة وأخرى لدعوتها لمناسبة طيبة كالزفاف، أو دعوتها للمشاركة معها في حرب قبيلة أخرى، وغير ذلك من الأغراض الاجتماعية التي تحتاج إلى الإعلان عنها.

هـ - ومن أهم وظائف الموسيقى الأفريقية تلك الألحان الخاصة بأنواع النشاط الاجتماعي، فهناك إيقاعات خاصة والحان خاصة لأعمال الزراعة تبدأ من الحرث ثم جني البذور ثم درسها ثم تخزينها ولكل هذه موسيقاها الخاصة التي يتغنى بها المجاميع العاملة أثناء عملهم فتزودهم بالنشاط والهمة.

وهناك أيضا الموسيقى والإيقاعات الخاصة بالمناسبات كالخطبة وحفلات الأفراح، وحفلات المواليد، وطلب المطر، ورقصات الانتصار، والموسيقى الجنائزية الحزينة، وموسيقى وإيقاعات استقبال الضيوف وتوديعهم، واستقبال الأعياد والمناسبات الدينية والوطنية.

---

42 ويوجد في البلاد العربية هذا النمط قديما حيث كان الراوي يروى القصص الشعبي مثل عنترة وابوزيد الهلالي على آلة الربابة.



الإيقاعات الأفريقية.. إبتكار أفريقي لم يستطع الأوروبيون الإضافة إليه..

لما يتميز به من دقة وإتقان وإبداع

المبحث الثالث

الشكل والمعنى في الموسيقى الأفريقية

كان المفهوم الشائع عند الباحثين والكتاب الذين اهتموا بتطور الفن، أن الفنون لدى الشعوب التي لم تصل إلى التقدم المطلوب وكذلك الثقافات في هذه المجتمعات البدائية، اقل نضوجا عنها في المجتمعات المتقدمة.

واستمر هذا المفهوم سائدا في أوساط المثقفين والمحللين للنشاط الثقافي والفني في المجتمعات، ولكن بالاطلاع المباشر والمعايشة لتلك المجتمعات البدائية تغيرت الفكرة، ففي السابق كان التفكير في أن مسالة النضوج المطلوب مرتبط بكل النشاطات الحياتية غير الفنون (الاجتماعية والاقتصادية والسياسية..) وفي ذات الوقت كانوا يقومون بعملية مقارنة بين أساليب التنفيذ والأداة المستخدمة في إنتاج الفنون بين المجتمعات البدائية والمجتمعات المتقدمة، ونسوا أن إنتاج الفنون والثقافة لا يعتمد بالدرجة الأولى على التقنية بقدر ما يعتمد على الموهبة والصدق والابتكار.

والكثير جدا من النقوش والرسوم التي ترجع إلى العصر الحجري القديم تكشف عن درجة فائقة من الكفاءة والدقة في الأداء على الرغم من كل ما كان يعاني منه الفنان، في ذلك الزمن من نقص في الأدوات والمعلومات وقصور في الأساليب، التي يحتاجها المبدع في التعبير عن تصوراته وأفكاره، ورغم ذلك فانه يأتي

بالجديد المبتكر "والجديد المبتكر هو ما يأتي عفوا دون أن يفكر فيه الإنسان"[43].

"واحسن أعمال الفنان وأمتنها ما يصدر عن المبدع عفوا في غير تكليف"[44].

وهذا الكلام نفسه ينطبق بصدق على كثير جدا من ألوان الفن التي توجد الآن لدى الكثير من شعوب العالم التي لازالت بالنسبة لقائمة التقدم والتخلف في آخر القائمة، ومن هذه الشعوب الكثير من الشعوب الأفريقية، والنضوج في العطاء الفني والثقافي، يظل مسالة يصعب الحكم عليها أو قياسها.

ويقول علماء الانثروبولوجيا:

"إن كل الفنون عند كل المجتمعات، وفي كل الثقافات فيها نوع خاص بها من النضوج والرقة والسمو، وإن كان يصعب تقديرها، إلا إذا فهمنا مقومات تلك الثقافة، والعناصر الأساسية التي تدخل في تكوينها، ومدى التفاعل بين الفنان والثقافة التي يعيش فيها، وبالتالي قدرته على التعبير عن تلك الثقافة".

والصحيح أن موسيقى أي شعب مهما كان بدائي أو نامي لا تخلو من (الشكل والمعنى)، والأصوات الموسيقية عندهم ليست مجرد أصوات متنافرة لا تنظمها وحدة إيقاعية، وهي ليست مجرد نغمات على وتيرة واحدة كما يقولون، بل على العكس هي اكثر بساطة واقل تعقيدا من الموسيقى في المجتمعات الأكثر تقدما ورقيا وحضارة، مع ملاحظة أن الإيقاعات الأفريقية بما فيها من إيقاعات مركبة هي اكثر غنى واكثر تعبيرا من أي إيقاع في أي موسيقى من موسيقى العالم.

---

43 الموسيقار العالمي بيتهوفن.

44 الموسيقار العالمي هاوتيمان.

ويقول علماء الموسيقى في هذا الصدد:

"إن أنماط الإيقاع في الموسيقى الأوروبية الحديثة اشد بساطة منها في كثير من الموسيقى غير الغربية وبالذات الموسيقى الأفريقية".

فالموسيقى الأفريقية تتميز إيقاعاتها بالتعقيد وسرعة التغيير، فرغم بساطة الآلات المستخدمة في العزف إلا أن الإيقاعات غنية جدا ومتنوعة، ولهذا السبب استفاد الملحنون في الغرب بأساليب جديدة في التلحين والتعبير الموسيقى والموسيقى التصويرية بفضل الإيقاعات الوافدة عليهم وخاصة الإيقاعات الأفريقية بما فيها من تعبير هائل، وإيحاء بجمل لحنية جديدة على الأسلوب المعروف في الغرب في الماضي.

والمعروف في الإيقاعات الأفريقية أن منها أنواع مختلفة فقد يصاحب الإيقاع حركة الجسم كما في الرقصات الأفريقية، وهناك أصوات تعبر عن البيئة وتصورها خير تصوير، مثل آلات القرع والخشاخيش والأجراس، أو إيقاع الضرب بالأيدي على الأفخاذ، أو على بعض أجزاء الجسم الأخرى، أو طرق بعض العصي إحداهما بالأخرى[45]، وذلك كله بالإضافة إلى دقات الطبول المتواصلة.

كما أن الدارس للموسيقى الأفريقية يكتشف أنها ليست عشوائية بل أن لها أنماط محددة تمام التحديد.

"لدرجة أنه بالإمكان تحديد المناطق الموسيقية في أفريقيا تحديدا دقيقا، بمعنى تقسيم القارة كلها إلى مناطق موسيقية متمايزة، تبعا

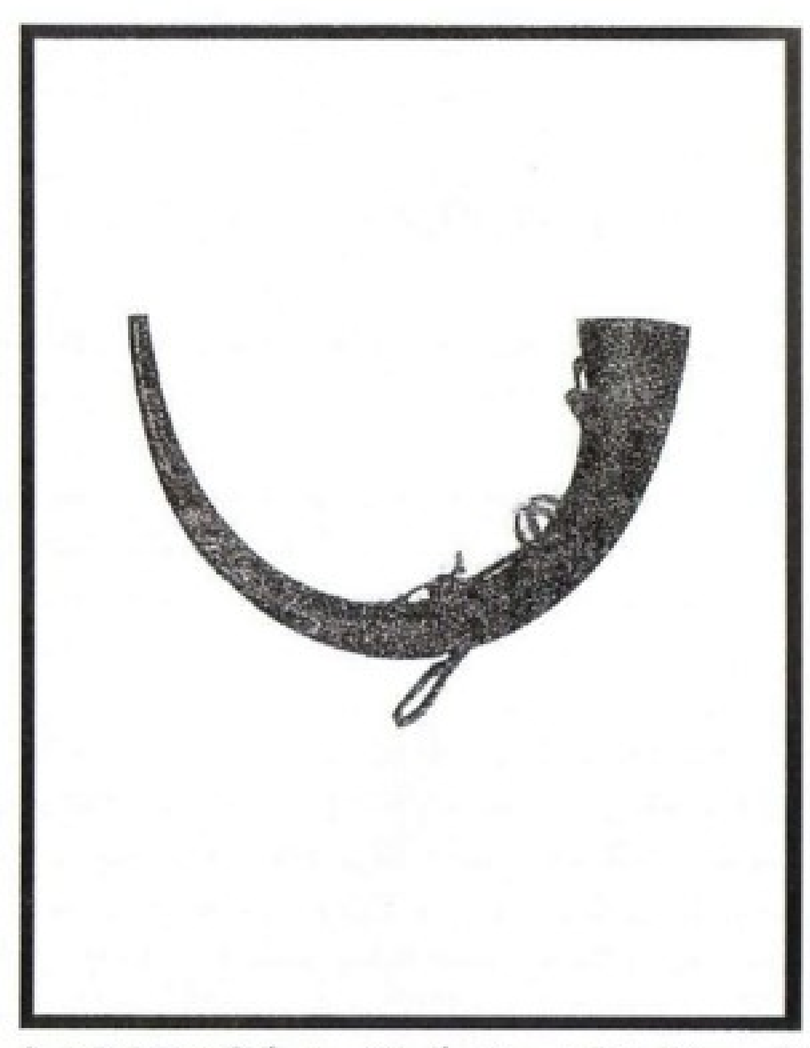
---

45 كما في رقصة الكاسكا المعروفة في بلادنا.

وقد خضعت هذه النماذج والعينات للدراسة والتحليل، واستغلوها في الغرب استغلالا كبيرا في ألوان جديدة من الموسيقى، وصدرت مجموعة من الموسيقات التصويرية مثل موسيقى فيلم تاى تنك (Titank) والآلات الإيقاعية المستخدمة في الأغنية الرائعة بهذا للفيلم، وما تقدمه فرقة الموسيقار العالمي يانى Yanne، والموسيقى والآلات الموسيقية والإيقاعات المستخدمة في البرنامج العالمي المرئي (عالم البحار) وغيرها ...

وهناك الكثير من الثروة الموسيقية لدى الشعوب الأفريقية تنتظر من يهتم بها بجمعها وتسجيلها وإخضاعها للتحليل الدقيق.

وخاصة إذا ما قام بهذا العمل فنان أو اكثر من المتخصصين في علوم الموسيقى ومن ذات البيئة أي من الفنانين الأفارقة فلا شك انهم الأقرب لفهم هذا التراث مما سيصدر عنه تحليل وتصورات تختلف اشد الاختلاف عن تصورات علماء الغرب الذين استغلوا دراستهم للفنون الموسيقية الأفريقية للسطو والنهب والقرصنة بدليل استغلالهم لما تحصلوا عليه في أعمال فنية جلبت لهم المال، واسندوا هذه الإبداعات الإيقاعية والموسيقية لملحنيهم ومؤلفيهم في الموسيقى والغناء.



آلة موسيقية من قرن حيوان.. أفريقية.. وهي أم آلات النفخ النحاسية الأوروبية والأمريكية

المبحث الرابع

الموسيقى الأفريقية إبداع مشترك

في المجتمع الأفريقي لا يوجد الاحتراف للفنون وبالتالي فلا نجد فنانا منقطعا أو متفرغا طيلة الوقت للتأليف الغنائي أو الموسيقى أو للأداء أو العزف.

فالمشاركة في الصنع جماعية، فهذه الشعوب لا تعرف نظام التخصص أو تقسيم العمل، بالمعنى السائد في المجتمعات المتقدمة – وبالذات المجتمع الصناعي الغربي– فالعمل في المجتمعات الأفريقية جماعي، وبذلك فالإنتاج الفني عملا جماعيا ينبعث من الجماعة كوحدة واحدة ويشترك فيه الكثيرون من أفراد الجماعة.

ولذلك فكلما كانت الجماعة اكثر تأخرا وبداءة، كانت المشاركة في العمل الفني اكثر جماعية، والدليل هو أننا نجد الأطفال في المجتمعات الأفريقية البسيطة التي تعيش على جمع والتقاط المحاصيل من الحقول، يعرفون ويرددون ويحفظون كل الموسيقى والغناء التي تتلاءم مع جنسه الخاص (عشيرته – قبيلته)، وهناك العديد من المؤلفات الموسيقية الغنائية التي ينظر إليها كما لو كانت (ملكا خاصا) لبعض القبائل أو العشائر أو العائلات الكبيرة، أو لإحدى الجمعيات المعلنة أو السرية، بحيث لا يسمح لغير أعضاء تلك الجمعيات بالاشتراك في أداء هذه الأغاني. ويزداد هذا الوضع وضوحا في المجتمعات الزراعية البسيطة، ولهذه المشاركة الجماعية



الآلات النحاسية.. رمز القوة في الموسيقى.. أغراضها عسكرية...

المبحث السادس

الرق .. وطبول تام تام

يحدثنا التاريخ أن أفريقيا ، كان تتعادل مع أوروبا في القوة خلال الفترة 1600 – 1850 م إلا أنه عقب ذلك حصل التفاوت الهائل نتيجة الثورة الصناعية التي نقلت أوروبا وأمريكا إلى مضاف الدول الكبرى .

ورغم ذلك لم تزل تلك الدول تحسب ألف حساب للأفارقة إلا أن المخططات الاستعمارية بدأت في التنفيذ بالحملات التبشيرية وغيرها من الوسائل تمهيدا للانقضاض علي العملاق الأفريقي وإيقافه حتى لا يكون نداً وفضاءا دولياً وبحيث لا يكون له وزن في ميزان القوى .

ولعل الاستعمار البرتغالي الذي كان يأتي بالعبيد من أفريقيا للقيام بالأعمال الزراعية والأعمال الشاقة الأخرى ، هو الذي أوحى إلى الأسبان بان يفعلوا هم كذلك نفس الشيء من اجل أن يزرعوا الأراضي التي احتلوها علي امتداد مناطق الكاريبي وأمريكا الوسطى فحيث لم يكف الهنود سكان البلاد الأصليين للقيام بهذا العمل، فقد تم التفكير في الأسرى الأفارقة، وبهذا بدأت تجارة استرقاق الأسرى من مجرد عدد للعمل بالمزارع إلى مشروع تجاري أوروبي وصفقات مالية لم تنته، واستمر هذا الحال (300) ثلاثمائة عام واكثر.

فمن يعمل في مزارع السكر والتبغ .. لا غير ملايين الأفارقة وهكذا نالت أفريقيا ما لم يكن في الحسبان وهو البؤس والتشرد والاستعباد ، لتنال أوروبا بالمقابل الثروات الطائلة والقوة المتنامية .

وفي الحقيقة لقد كانت مصيبة أفريقيا من داخلها ، فالزعماء الأفارقة كانوا يشترون السلع المصنعة من الأوربيين مقابل أسرى أفريقيين ، يتم شحنهم عبر الأطلنطي، ويشترون كالعبيد .

وكان هؤلاء الأسرى المساكين يباعون كسلعة في تجارة مثلثة الخطوات :-

الخطوة الأولى : يدفع الزعماء الأفارقة الأسرى الأفارقة مقابل السلع المصنعة

الخطوة الثانية : التاجر يشتري السكر والتبغ من المصانع ويبيعها بأسعار خيالية في أوروبا ، ويدفع مقابل ذلك الأسرى الأفارقة .

الخطوة الثالثة : ويعود بيعهم من جديد .. هكذا ..

ومن هذا نستخلص أن تجارة الرقيق كانت السبب المباشر في قيام الثورة الصناعية في اغلب الدول الأوروبية الأمر الذي وصل إلى المزيد من القهر للأفارقة الذين كانوا يطاردون في بلدانهم وبأمر من الملوك والمشايخ والزعماء الأفارقة للقبض عليهم أو اصطيادهم لبيعهم إلى السيد الأوروبي!!!

ولم ينتبه ضمير الجماهير البريطانية إلا في عام 1807 وإرضاء للجماهير الساخطة اضطرت بريطانياً لإلغاء تجارة الرقيق .

وفى ذات الوقت واصلت البرتغال وأمريكا تجارة الرقيق بأكثر قسوة وقهر ، ولم ينته هذا الوضع المؤسف إلا في منتصف القرن التاسع عشر .

وحتى نتعرف علي قصة ظهور موسيقي الجاز الأمريكي نتحدث عن مدينة (اورليانز الجديدة) التي قدمت للعالم نجوم موسيقي الجاز.

مدينة اورليانز الجديدة، علي نهر المسيسبي، وسكان هذه المدينة هم خليط من المهاجرين – الأسبان والإنجليز، ومنهم تتكون طبقة الأسياد، فكل منهم يمتلك عدداً كبيراً من الأفارقة، الذين يسخرونهم في جميع الأعمال ، وخاصة الزارعة.

في هذه المدينة ظهر نجوم موسيقي الجاز الأفريقي، الذي عرف بالجاز الأمريكي.

ونذكر منهم :-

لويس ارم سترونج، أوليفر، بكيت، وغيرهم وجميع هؤلاء النجوم كانوا من الرقيق الأفارقة، وهذه الأسماء ليست لهم بل هي أسماء أسيادهم البيض، وهي وراثة بين البيض للأفارقة منذ استورد تجار الرقيق أجدادهم من أفريقيا في القرن السابق .

وموسيقي الجاز ظهرت نتيجة لظروف تاريخية واجتماعية علماً بان هذا النوع من الموسيقي احبه جميع من هم في أمريكا بغض النظر عن جنسياتهم وألوانهم واتجاهاتهم وكان أهم الظروف التي أوجدت هذا اللون من الموسيقي هو إلغاء نظام الرق العبودية عام 1863م علي يد الرئيس الأسمر (ابراهام لينكولن). وكذلك نهاية الحرب الأهلية الأمريكية عام 1865م.

وبعد هذه السنوات، القرون الطويلة وجد الزنوج أنفسهم أحرارا في مدينة اورليانز الجديدة، والتي كان أهم شوارعها المسمى (رامبارت) حيث توجد به صالات الموسيقي والرقص الأوروبي (الفالس والبولكا)، كما يوجد بالمدينة دار الأوبرا الفرنسية، وفرق

نحاسية صغيرة مهمتها عزف الموسيقي في شوارع المدينة نهاراً وخاصة في العطلات والمناسبات.

بالنسبة للأفارقة وفي سنوات الرق كانوا في حاجة إلى ما ينسيهم العذاب ولو قليلا، فقد جلبوا معهم من أفريقيا موطنهم الأم الأصلي، تراثهم من إيقاعات والحان احتفظوا بها وتوارثوها من جيل إلى جيل، وكانوا يرددونها في حقول القطن، أو أثناء سمرهم لتسلية أسيادهم البيض وكان أهم ما لفت أنظار الأوربيين هي تلك الطبول الكبيرة التي تسمى تام تام أو بامبولاس، والتي كانوا يصنعونها بأيدهم، ويشدون عليها جلود البقر، وكان الأوربيون يتسلون بالفرجة على عبيدهم وهم يلهون فأطلقوا على تلك السهرات اسم (راج تايم) أي أوقات المرح اللامحدود، أو العفرته والمزاج.

والألحان الأفريقية التي جلبوها معهم وإيقاعاتها الرائعة، بالإضافة إلى ما تعلمه الأفارقة من الحان الكنائس، كل هذه امتزجت مع صرخات عذاب العبودية، وتعبيرات الأرواح المكتئبة المعذبة واليائسة كل هذه العناصر المؤثرة هي التي كونت موسيقي الزنوج في أمريكا.

وعندما انتهت الحرب الأهلية تركت فرق الموسيقى العسكرية الآلات الموسيقية النحاسية في الشوارع، فجمع الأفارقة هذه الآلات وأخذوا ينفخون فيها محاولين عزف ألحانهم المحفوظة أو المارشات العسكرية التي كان يسمعونها، أو أية أنغام تلقائية أخرى إلى أن وصلوا هكذا بالفطرة والسليقة وبدون قصد ابتكروا أسس موسيقي الجاز، وبذلك أصبحت أيضا الآلات النحاسية هي الآلات الأساسية لعزفها.

وكما هو معروف أن الآلات النحاسية يمكن استخراج الألحان البسيطة عليها بدون دراسة أو تعليم، لأن الأصوات تصدر تلقائيا، وهذا بعكس الآلات الموسيقية الأخرى وخاصة الوترية.

وفي عام 1895 تكونت في مدينة أوليانز الجديدة، أول فرقة تعزف موسيقي الجاز برئاسة (بادي بولدن) الذي كان يعمل حلاقا في النهار، وعازف علي آلة الكلارنيت بالليل.

وكانت فقرات البرنامج تعتمد علي الارتجال فهم لا يعرفون نوطة موسيقية ولا قواعد ولا أصول الموسيقي بل يعتمدون علي الارتجال فقط (الذي يشبه التقاسيم الحرة في الموسيقي العربية) وكانوا يشتر كون في هذا الارتجال وتنطلق منهم الأصوات في كل اتجاه دون قاعدة، ولكنها علي كل حال كانت تعبر عن مأساتهم الطويلة، وحريتهم التي ما كانوا يحلمون بها، ولذلك كانت الألحان ذات تعبير مزدوج بالصدق والإبداع.

وتزايد عدد الفرق بالمدينة، وأصبحت في كل صالة وشارع في كل مناسبة وبيت وفي مقدمة زفاف كل عروسين وكذلك أمام المواكب الجنائزية.

في عام 1920 دخلت آلة البيانو إلى موسيقي الجاز واخذ عدد من الموسيقيين البيض يكونون فرق مماثلة في عزف موسيقى الجاز مع إضافة تدوين المقطوعات الموسيقية والأغاني بالنوتة الموسيقية ولكنهم لم يحققوا أي نجاح لأن الروح الزنجية كانت تنقصهم بما فيها من حركة ومرح وجاذبية وهذا الأمر اضطر البيض إلى ابتكار نوع جديد من موسيقي الجاز أطلقوا عليه اسم (ديكسي لاند) انتشر في أمريكا بفضل أشرطة الخيالة (السينمائية) وشركات الاسطوانات.

ثم قامت الحرب العالمية الثانية ولكن ذلك لم يؤثر علي الفنون، وخاصة فن الموسيقي التي لم يقف تطورها بل أن موسيقي الجاز صارت هي موسيقي الرقص بكل أنواعه.

وانتقلت زعامة موسيقي الجاز إلى مدن أخرى في أمريكا فمن شيكاغو إلى بال تيمور وواشنطن ونيويورك وبوسطن وفي كل هذه المدن تكونت فرق الجاز التي كانت تجري العقود والاتفاقات مع المبتكرين الأصليين من الزنوج من مدينة أوليانز التي تعتبر هي المعهد الأساسي الذي ابتكر هذا الفن، وذلك للعمل مع الفرق كعازفين محترفين، فهم الأصل وهم النجوم لفن الارتجال [53].

في حي (هارلم) الذي يسكنه الزنوج بصفة عامة في مدينة نيويورك لمع كل من:

(فلتشر هندرسون وديوك الينجتون) وكانا من الموسيقيين الدارسين .. وشكلا فرقة جاز وضاعفا عددها من ثمانية إلى ستة عشر عازف وكتبوا النوتة الموسيقية، واصبح أمام كل عازف حامل نوته موسيقية، ومن هنا بدا أسلوب الارتجال يختفي ما عدا العزف الانفرادي للعازفين المهرة (صولو).

وتم إطلاق اسم جديد علي الجاز وهو (الجاز الجاد) ونجحوا نجاحاً ملحوظاً، وأصبحت حفلاتهم في اكبر الفنادق ووصلت إلى الجامعات والمعاهد الكبرى في مختلف المناسبات وحصل التنافس بين فرق البيض وفرق الزنوج الذين كانوا دائما الأفضل لكونهم منبع هذا الفن ومكمن ذكرياته وأصالته، وهو تراث والتراث لا يقلد وحتى أن تم تقليده فلا يمكن الوصول فيه إلى الدرجة الإبداعية المطلوبة.

---

53) الارتجال : هو التفكير والأداء في آن واحد .. أي الاستعداد الحيني للأداء وسنتناوله بالشرح في الفصل الثالث.

عام 1945 بدأ فن الجاز أسلوبا جديدا حيث اختفى رقص العازف أثناء عزفه، والجمهور كذلك، وتم تقديم موسيقي الجاز في سكون تام، وذلك لأن الاستعداد لدى الفرق كان يستحق هذا، وأصبحت فرق الجاز تقدم فنا يلزمه الإصغاء والهدوء، فن يخاطب المشاعر ويرتفع إلى المستوى (السيمفوني) حيث أن جميع العازفين من خريجي المعاهد الموسيقية العليا، واقتصر الارتجال علي ضيوف الشرف في الحفلات من رواد هذا الفن.

كما اختفت الإيقاعات السريعة الساخنة، وتم وضع مؤلفات جديدة تميل إلى البطء في الإيقاع، والتعبير العاطفي في الحان ذات طابع غنائي مؤثر، وأطلقوا علي هذا اللون الجديد اسم (الجاز الهادي).

وظهرت في هذه الفترة البوادر الأولى لتشكيل فرق (السيموجاز)، (وهي عبارة عن تكوين موسع لآلات الأوركسترا السمفوني الكاملة مضافا إليها فرقة الجاز التقليدية).

وأول من قدم هذا اللون هو (جيل ايفانز) عام 1954 ثم (جنتر شولر) 1955 وتوالت وتكررت التشكيلات.

ولكن لم تنته فرق الجاز الأخرى التي كانت متمسكة بالإيقاع السريع والعزف الارتجال وكانت اكثر نجاحا لأن الجماهير أحبت هذا اللون.

وبذلك ظهر (الروك اندرول) في أوائل الستينيات وظهر به نجوم من البيض والزنوج مثل (الفيس بريسلي) وغيرهم.

ونادي الفنان الزنجي (سيسل تايلور) وهو عازف بيانو أول في فرق الجاز بالعودة إلى الأصول الأولى القديمة، وقال "أنا احب أن أرى الناس من حولي يرقصون وأنا اعزف، هكذا هم أجدادي الأوائل في أفريقيا .. دمنا وحرارة بلادنا تحتم ذلك ..".

خلال فترة رحلة موسيقي الجاز وفى العشرينات من القرن الماضي تسربت موسيقى الجاز خارج أمريكا فامتزجت بموسيقي أمريكا اللاتينية والأرجنتين والمكسيك، وبالطبع تم إضافة إيقاعات من هذه الدول إليها وظهرت رقصات جديدة مثل التانجو والرومبا والسامبه والتشاتشا. وغيرها بالإضافة إلى آلات الإيقاع الشعبية في تلك البلدان مثل القرع. الشخاشيخ والنقارات .. وغيرها.

يبلغ عمر موسيقي الجاز للآن حوالي (القرن وربع القرن) لم تنقطع خلالها عن التطور والتغيير، فما زالت تصل أحيانا إلى المستويات السيمفونية، وترتد أحيانا أخرى إلى أصولها التقليدية القديمة التي بدأت منها.

واهم ما يلفت النظر في موسيقي الجاز أنها انتشرت في جميع أرجاء الأرض بسرعة البرق، ولعل ذلك أهم دلالتها الصادقة أنها فن إنساني وتراث أصيل عبر عن شعب لم يتعرض شعب في الأرض للقهر والعبودية والعنصرية مثله أبداً.

والموسيقي الأفريقية تعتمد علي استعمال آلات القرع، والإيقاع المركب وهي لذلك جذابة ومعبرة، فهي عكس الموسيقي الأوربية التي تعتمد الآن علي التوافق الموسيقي(54) ورغم ذلك لم تصل إلى جمالية الموسيقي الأفريقية بل وأن ما أضفى الجمال علي الموسيقي الأوروبية هي الإيقاعات المركبة الأفريقية التي تتميز بها عن موسيقى العالم اجمع، فالإيقاعات الأفريقية رفيقة السهر والسمر والعمل للإنسان الأفريقي، بما فيها من آلات منوعة موادها من الطبيعة كالخشاخيش والطبول، وكافة الآلات الموسيقية المحلية الأخرى.

---

(54)التوافق الموسيقي هو علم الهارموني . التوزيع ..

والإنسان الأفريقي، هو إنسان الطبيعة إنسان الهواء الطلق، إنسان يحب أرضه فأحبته وأعطته التراث.

وهو إنسان الحركة، الإيقاع، والنغم، رقص خلاق، أغاني كلها عاطفة، عاطفة آخذة في الصعود منعكسة علي قسمات الوجه الأفريقي بمعاني الصدق والطهارة ذلك لأن الفن في أفريقيا مرتبط بالحياة الاجتماعية الواقعية إلى ابعد الحدود. ذلك لأنه كما سبق القول الفن هو الدافع القوى نحو العمل[55] والإنتاج، والتنافس للمزيد من بذل الجهد والعطاء.

وما يميز الفن الأفريقي عن بقية فنون العالم الآخر هو ارتباطه بعضه ببعض فما من أغنية إلا وتصاحبها رقصة تعبيرية، وما من آلة موسيقية إلا ولها وظيفة مقصودة بعينها.

وهناك ميزة أخرى وهي أن العمل الفني هو عمل من صنع الجميع، ولأجل الجميع، وهذا لا يمنع من أن هناك عدد من المحترفين للفنون والآداب في أفريقيا[56] ولكن يبقى دائما للفن في أفريقيا وظيفة اجتماعية، وهو جماعي الإبداع، وملتزم بقضايا الجماهير واهمها (الحرية والإنتاج) ومهمة الفن في أفريقيا هي الحث علي المزيد من العطاء والإنتاج، ويظهر ذلك في كلمات الأغاني وحركات الأجساد، وفي روعة القصائد الشعرية، والآلات الموسيقية والإيقاعية، وفي الرقص الجماعي، وفي أساليب الرسم والنحت، فالفن يدخل في كل الموضوعات، والأنشطة العامة والخاصة، والفن الأفريقي يعتمد في تعبيراته علي الصورة والإيقاع، وبالتحليل المنطقي للفنون الأفريقية من موسيقي وغناء وشعر وقصة ورسم

---

55 فــالفن في أفريقيا يمارس في الحقول والمصانع، وبشكل تلقائي لا يحتاج إلى استوديوهات أو مدن إعلامية وصحافة ومشاهير.

56 ولكن مصدر الهام هؤلاء المحترفين هو ما يصدر عن العامة من الناس من ألوان فنية.

ورقص ونحت وغيرها، نجدها كلها مسكونة بالإيقاع الحي المتحرك، النابض بالحياة، الذي يبث النشاط والحركة في الإنسان دائما[57].

والفن الأفريقي يلامس الفن الإسلامي بنزعة التجريد والإيجاز ويأخذ من الفن الإغريقي نزوعه نحو محاكاة نماذج الطبيعة بدقة، ولعل هذا هو السر في كون أفريقيا هي بلد الأسرار والأفكار والإبداع والابتكار. [58]

وقد أثرت الموسيقي والإيقاعات الأفريقية في تطور الموسيقي في أوربا وأمريكا، فالأمريكية بما جلبه الأفارقة لها معهم من تراث والحان، وما لقيه الاهتمام بروحانيات الزنوج وموسيقاهم من الزنوج أنفسهم استطاعوا أن يسيطروا بطابعهم المعروف بالجاز أو الجازي (jasy) في العصر الحديث علي خريطة البرنامج العام في الإذاعات المسموعة والمرئية وفى المسارح ودور العرض، ووصل الأمر إلى تداخل الآلات المستخدمة في فرقة الجاز مع آلات الأوركسترا السيمفوني التقليدي[59].

لأداء المؤلفات الأمريكية التي تظهر فيها العناصر اللحنية المستلهمة من موسيقي الهنود الحمر، ومن روحانيات وإيقاعات الأفارقة.

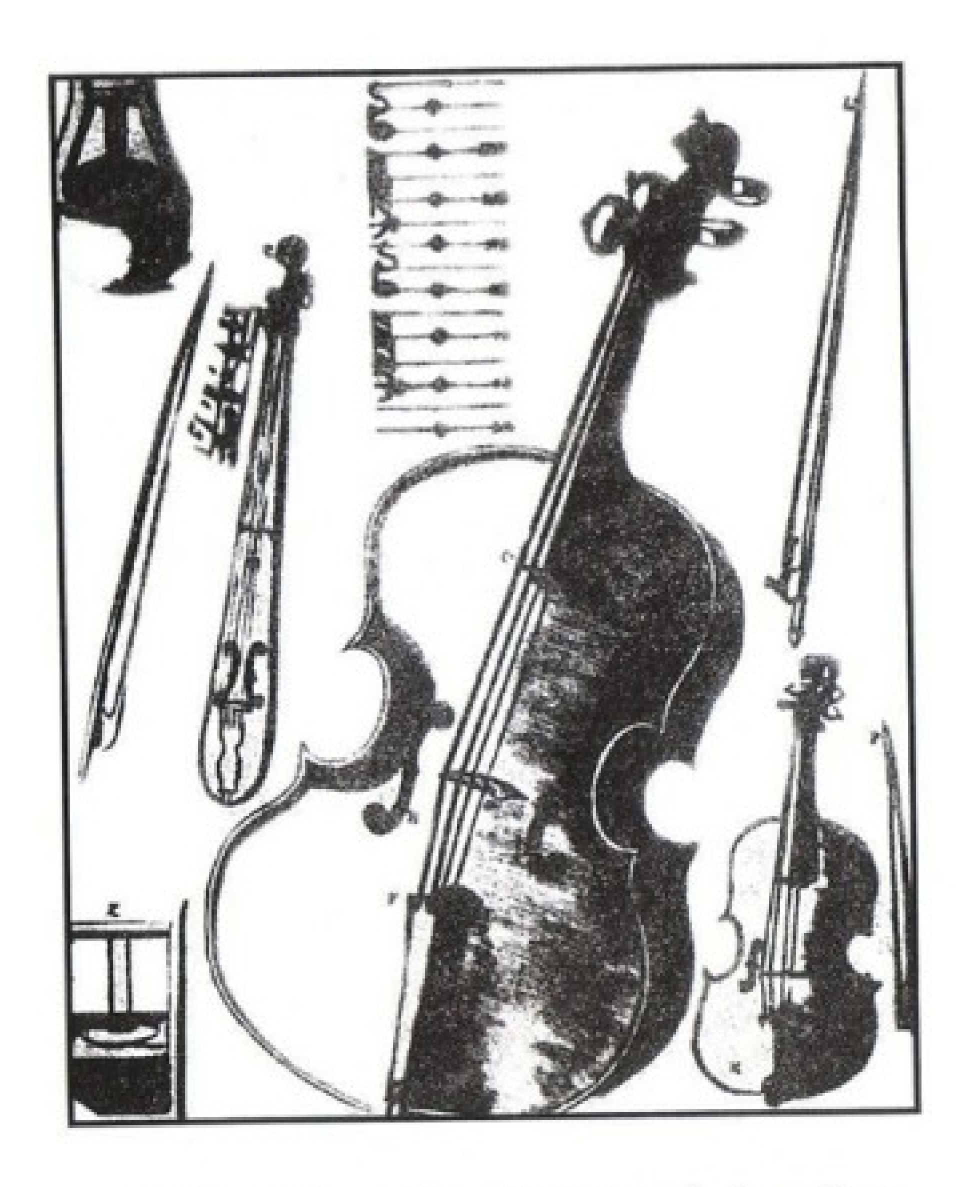
ولم يتم للان إنصاف أفريقيا. بإثبات أن هذه الفنون الموسيقية، وآلاف التماثيل والأقنعة، هي أفريقية، وليست من إبداع الأوربيين أو الأمريكيين الذين يدعون نسبة ذلك إليهم!!

---

(57) ولـذلك فكـل الرقصات الأوروبية والأمريكية المشهورة في العالم اصلها أفريقي وتسمياتها أفريقية.

(58) ولـذلك اهـتم الكثيـر من الباحثين الأوروبين بدراسة الفنون الأفريقية، واستفادوا كثيرا في تطوير فنونهم المحلية من خلالها!!

(59) ظهر لون جديد في الموسيقى الأمريكية اسموه (سيمفوجاز Sympho Jazz)



الربابة العربية.. أوحت بإختراع آلات الكمان.. والفيولا.. والتشيللو..
والكنترباص.. وكذلك الأقواس



تمهيد

مما لاشك فيه أن العرب ، قد اخذوا الكثير من علوم الخضارات التي سبقتهم ، وهكذا شأن الحضارات جميعا ، فالبناء الحضاري يعتمد علي تواصل الأجيال ، ولكن العرب لم يكتفوا بالأخذ فقط ، بل طوروا ما تحصلوا عليه من معارف، حتى تكاملت وفاقت اصلها، وتوصلوا إلى وضع المناهج العلمية وبها تجاوزوا عملية المحاكاة والنقل والتقليد، ووصلوا إلى مرحلة الابتكار والإبداع والتجديد .

وبخصائص التفكير العلمي سبق العرب عصرهم ، فكانوا الأقدر علي الإبداع بين كل شعوب العالم، التي اتجهت إلى اخذ العلوم والآداب والفنون عن العرب، بعد أن كانت في ظلام دامس من الجهل والتخلف، وأوروبا هي أول القارات التي استيقظت من نومها علي نور الفكر والعلم العربي فأخذته، فأوصلها إلى ما هي عليه اليوم من تقدم وازدهار.

والمؤسف له، أن التنكر لدور العرب في تقدم الحضارات العالمية لازال قائما، ونحن لا نلوم أوروبا بقدر ما نلوم أنفسنا، وذلك للآتي:

أ- مخطوطاتنا العربية في الآداب والفنون والثقافة والعلوم تركناها مخزنة في أدراج المكتبات في العواصم العربية والمكتبات والمتاحف الغربية، ولا يتاح للباحث العربي الاطلاع علي هذه الكنوز إلا بجهد جهيد، بل انه يجهل حتى عناوينها ومواضعها لعدم تداولها أو الإعلان عنها .

ب- لم تتخذ أية احتياطات للمحافظة علي المخطوطات العربية، والتراث العربي والإسلامي عموما، بل جعلناه عرضة للنهب والسرقة والحرق من خلال غارات المغول والأتراك والإنجليز والأمريكان، هؤلاء الغزاة الذين يدركون أن تخريب وتدمير هذا التراث هو تدمير للحضارة العربية والإسلامية، وتسهيلاً للغزو الثقافي والعولمه للسيطرة علي عقول الأجيال اللاحقة.

ج- عدم الدفاع عن التراث العربي والإسلامي الذي تم نقله إلى أوروبا ، ولم يقولوا انهم ترجموه عن الحضارة العربية بل نسبوه إلى أنفسهم وكأنه من ابتكارهم وإبداعاتهم، رغم مشاركة العرب في كل المنظمات العالمية التي تحمي الفكر وتضمن حقوق المؤلف.

د- عدم تشجيع الدارسات المقارنة بين الكتاب والمفكرين العرب المعاصرين فهي وسيلة إثبات بما في تراث العرب وأثره في الحضارة الغربية من جهة، ووسيلة توعيه للجيل الحاضر الذي لا يصدق ما يسمعه من تفاخر بمجد الآباء والأجداد، بل يزداد انبهاراً بمدنية الغرب، لأنه يجهل من أين جاءت هذه المدنية ؟

فلقد كان للعرب السبق، بقرون عديدة، إلى الكشف عن خصائص التفكير العلمي، وهم الذين سلموه أو أوصلوه إلى أوروبا

وأمريكا، التي تنظر إلينا أجيالها الحالية علي أننا نمثل التخلف، بل أجيال العرب أنفسهم تصفنا بذلك!! ويكفي أن يقال عنا أننا العالم الثالث!! وهذا كله راجع إلى جهلهم بالحقيقة المدفونة في ارفف مكتباتنا الرسمية العربية.

وفي مجال الموسيقي والغناء، نفخر بأننا أول من عرفها، ووضع لها القواعد والأصول والنظريات، أول من وضع الحروف الموسيقية (النوتة)، وأول من وضع التوزيع الموسيقى، توافق الأصوات – الهارموني – وأول من عرف الآلات الموسيقية وصنعها، وأول من وضع فن الزكرفة الموسيقية الغنائية.

ونتناول كل ذلك في المباحث التالية :

المبحث الأول : توافق الأصوات (الهارمونى) .

المبحث الثانى : اقدم الآلات الموسيقية .

المبحث الثالث : فن الارتجال .

المبحث الرابع : إعادة البناء الحضاري .

المبحث الأول

توافق الأصوات

الهارموني

موسيقانا الشرقية، هي أغنى موسيقات العالم، لأنها تحتوي على مئات الأنغام- المقامات- وتركيب كل منها يختلف عن الآخر، وذلك بفضل ¼ (ربع التون) أو المسافة الصوتية – التي يراها اليوم بعض العــرب" المســتغربون" بأنها تمثل تخلف الموسيقى العربية والشرقية عمــوماً- مــع أن موســيقانا تمتاز بربع المسافة هذه عن الموسيقى الغربية.

والموسيقى الغربية لا يوجد فيها إلاّ نغمتان فقط هما:

الماجــور والمنــيور، وهاتان النغمتان موجودتان في الموسيقى العــربية (الماجــور وهو العجم- المنيور وهو النهاوند) [60] وتنفرد الموسيقى الغربية "بالهارموني" وهي بدونه لا تساوي شيئاً.

وتنفــرد موســيقانا العــربية بســحر ألحانها، وجمال تعبيرها، وإقتــراب أنغامهــا مــن النفس البشرية، وهذا كله ناتج عن أساليب تــراكيبها، وكثرة أصوات سلمها الموسيقي، وتعدد مقاماتها، وروعة وكثــرة ايقاعاتهــا وتنوعها، أما الموسيقى الغربية فإذا ما ألغينا عن ألحانهــا "الهارموني" فستجدها موسيقى ضعيفة مهلهلة خالية من أي إبداع. فهي فقيرة ، ولا وجود لها إلاّ "بالهارموني" Harmoni.

---

(60) الماجور: معناها النغمة البالغة وسلمها يُسمّى لكبير.

المنيور: معناها النغمة القاهرة وسلمها يسمى غير.

ولتعريف الهارموني نقول:

الهارمونــــي هــو " علــم الاصـــطحاب" اصطحاب الأصوات وائـــتلافها، أو هـــو علـــم الانسجام الصوتي، أي أن أكثر من صوت تؤدي في آن واحد ، مع ضرورة أن يكون بينهما توافق[61].

" ويدلـــنا تاريخ الموسيقى أنه قد سبق فن الهارموني فناً يقال له "كونتـــربوان Contrepoint" وكـــان هـــو الأساس لفن الهارموني والكونتـــربوان عـــبارة عـــن فن يؤلفون بموجبه موسيقاهم في جملة صـــفوف لحنـــية تنشد في وقت واحد من فرقة كبيرة، وكل صف له لحـــن خاص ومنشدين يختصون بإنشاده، بشرط أن تكون الأصوات التي ترافق بعضها في الصفوف منسجمة ومتآلفة، وتتكون من صفين على الأقل ، ولا تزيد عن ثمانية "[62].

أصل الهارموني:

يقـــول العـــالم الموســـيقي المعروف (برودوان بريفوســـــت) Prudeant Privoste " إن الـــيونان القدماء أخذوا السلم الطبيعي (الماجـــور) عـــن موسيقى الشرق، وهذا السلم لم يكتشفه الأوروبيون كما زعم (زارلينو) الذي نسبه لنفسه تزويراً، بل مصدره الشرق".

والمعـــروف تاريخـــياً أن العالم العربي الفارابي هو الذي وضع النســـب الرياضـــية لســـلم الماجور[63]، ومن الفارابي عرف العرب سلمهم الموسيقي بأبعاده الرياضية.

---

(61) وهذا التوافق يكون:

تاماً: وهو الذي يحدث بين المسافات الثامنة والخامسة والرابعة.

غير تام: وهو الذي يحدث بين المسافات الثالثة والسادسة.

(62) سليم الحلو ، تاريخ الموسيقى الشرقية، دار مكتبة الحياة، بيروت- لبنان، 1974، ص162.

(63) الفارابي مولود سنة 873م. (وزارلينو) الايطالي مولود عام 1517 م!!!.

" وأعتــرف الايطالــي جوزيف زارلينو G.Zarlino في آخر أيامه بأفضلية ما وضعه العرب من الدواوين والسلالم قبله بما يقرب من أربعمائة سنة " [64].

يقول العالم أوجين بوريل Euq,Borrel:

" إن الموســيقى العربية ظلت عدة أجيال كالخميرة التي ساعدت على النمو والنضوج".

وقال المستشرق هنري فارمر H.Farmer:

" إن الموســيقى العربية هي من أصل سامي أثرت تأثيراً كبيراً في الموسيقى اليونانية، إن لم نقل أنها كانت ركنها الأساسي".

يقول الفارابي فيما أثبته في علم الاصطحاب " الهارموني" :

" ونعنــي بعلــم الاصطحاب، إشتراك نغمتين –أي صوتين– أو أكثــر تنقر في آن واحد، واشتراك الأصوات المتآلفة بحسب وصولها إلى الأذن، وإتفاق الاصطحاب والمؤالفة متوقف على نسبة الأصوات بين بعضها...".

وبعد الفارابي يأتي عالم شرقي عربي آخر هو صفي الدين عبد المؤمن البغدادي، وبعد الفارابي بمائتي سنة ويقول :

" ... إنّ بعض الأبعاد الصوتية تتفق مع بعضها عندما تُضرب الواحدة تلو الأخرى، وهي لا تتفق إذا ضُربت في آن واحد " [65].

وهــذا القــول يعني أن الهارموني أوجده العرب منذ القدم، وأن الغرب قد أخذه عن موسيقانا ومفكرينا.

وقد أعترف بهذا علماء الغرب ومنهم:

---

(64) سليم الحلو ، تاريخ الموسيقى العربية، مرجع سابق، ص 236.

(65) ضُربت: أي عُزفت.

لاند، بوريل، فارمر، هيجو، ريامان، باري...الخ.

يقول (باري) في كتابه فن الموسيقى:

" إن نظـرية صـفي الـدين عبد المؤمن البغدادي(في تقسيمه للديـوان العربـي) بأنهـا أفضل نظرية وأكمـل سلم موسـيقي في تقسيمه...".

ويقول (ريامان) في كتابه تاريخ الموسيقى:

"... إن سـلم صـفي الـدين أعطـى اتفاقاً أنقى وأصفى مما يسـتطيعه سـلم الأفـرج – المعـدل– المأخوذ أصلاً عن السلم العربي...".

ويقول العلامة: هلمهولتس[66]: في كتابه " تأثير الأنغام"

" إن نظـرية هـؤلاء النظاميين العرب لها قيمة عظيمة وفائدة عميمة في تاريخ تقدم الموسيقى...".

ونـرى كـيف كان للعلماء العرب فضل السبق في إبتكار علم الهارمونـي الـذي هـو كـل الموسيقى الغربية، وذلك منذ القرون الوسطى.

فهـل يكفـي هـذا للمستغربين من الفنانين العرب الذين يلهثون وراء التقلـيد للموسيقى الأوروبية، والذين يعتبرون أن " الهارمونى" تقدم مع تركهم للموسيقى العربية الغنية بمئات المقامات والمتميزة في موسيقات العالم أجمع بالربع تون، وهذه المقامات وتراكيبها وأنغامها لا تحتاج كثيراً إلاّ في ما ندر للتوزيع الهارموني.

---

(66) هلمهولـتس: أعظـم خبير في العالم في كل ما يختص بالسمع والصوت واهتزازاته وحصر النسب والعلوم الرياضية الخاصة بالفنون.

" إن أكثر تواريخ الموسيقى لا تتكلم عن الموسيقى العربية أو لا تذكر عنها سوى القليل، وتلك عادة ساروا عليها في الجامعات حيث يعطون الاهتمام للدروس اليونانية واللاتينية، وللآداب الأوروبية، أما فيما يتعلق بالآداب العربية فأمر خارج عن البروغرام " البرنامج" ولا يُعتنى به ..."[67].

وعلى كل ما تقدم " يكون واجباً على كليات الفنون ومعاهد الموسيقى والفنون جميعاً أن تتصدر مناهجها ويكون من أهم مراجعها المجموعة الهائلة والقيمة من المخطوطات العربية في الفنون ومنها:

أولاً: مؤلفات الكندي الموسيقية[68]:

أ- الرسالة الكبرى في التأليف والموسيقى.

ب- الرسالة في ترتيب النغم.

ج- رسالة الايقاع.

د- المدخل إلى صناعة الموسيقى.

ه- خبر صناعة التأليف.

و- رسالة صناعة الشعر.

ز- الإخبار عن صناعة الموسيقى.

ومن مؤلفاته:

رسالة في خبر تأليف الألحان ... وهي محفوظة بدار الكتب العامة ببرلين- ألمانيا- تحت رقم 5503، وهي تعتبر من أقدم المصنفات العربية في الموسيقى.

---

(67) العلامة الموسيقي: أوجين بوريل ، الموسيقى العربية في القرن التاسع عشر، مجلة المعرض موزيكال، باريس- فرنسا، عدد 30 إبريل 1939م.

- والأستاذ أوجين هو رئيس جمعية الموزيكولوجية الفرنسية.

(68) كما ورد في الفهرس لابن النديم.

كما توجد مخطوطتان أخرتان للكندي بدار الكتب العامة ببرلين تحت رقم 5530 و 5531[69]. أكد وجودها فارمر، والدكتور محمود الحفني في كتاب (تراثنا الموسيقي).

ثانياً: مؤلفات الفارابي:

أ- كتاب الموسيقى الكبير.

ب- كلام في الموسيقى.

ج- إحصاء الايقاع.

د- إحصاء العلوم: عرض فيه أيضاً للموسيقى وقد ترجم إلى اللاتينية.

علماً بأن كتاب الموسيقى الكبير، كتاب قيم يحوي كل أسرار صناعة الفنون ووظائفه الاجتماعية[70].

ثالثاً: مؤلفات المستشرق هنري فارمر:

أ- مصادر الموسيقى العربية.

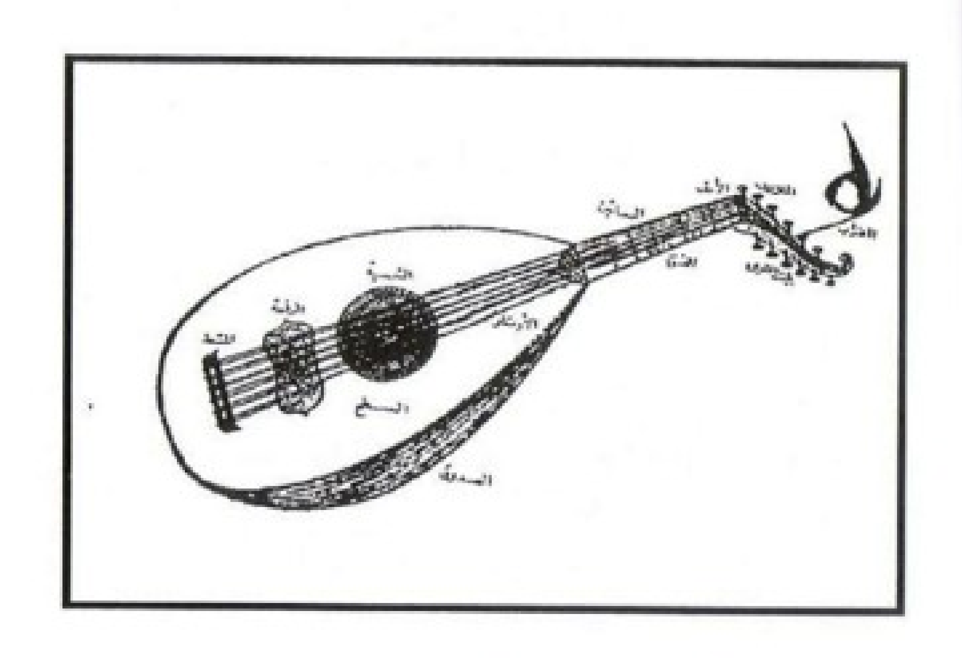
ب- حقائق تاريخية عن تأثير الموسيقى العربية. (المنشور في لندن عام 1930م).

إلى جانب ما كتبه الأصفهاني (كتاب الأغاني) وصفي الدين عبد المؤمن البغدادي، وأخوان الصفا، ويونس الكاتب وإبن سيناء.

فهذه الكنوز الثقافية لا بد أن يلم بها جيل الفنانين وعامة الناس، وحتى يعلموا أن السبق والابتكار والتجديد والأصالة والإبداع في العالم – هو عربي.

Farmer- A. History of Arabian Music the 13th Century. P.128 and 246.(69)

(70) وللأسف لا توجد نسخة من هذا المخطوط في الأقطار العربية فالنسخ الأربعة موجودة الآن في: أسطانبول / مدريد/ ميلانو/ ليدن.



آلة العـود، أشهر الآلات الموسيقية في العالم

المبحث الثاني

اقدم الآلات الموسيقية

من أهم المكتشفات الأثرية (القيثارة السومرية) التي تعتبر من أهم آثار تاريخ الموسيقى على الإطلاق، وقد عثر على هذه الآلة عالم الآثار البريطاني (وولى Wooli) عام 1927اف، في مدينة .اور السومرية في جنوب العراق واتضح أنها صنعت منذ 4500 أربعة آلاف وخمسمائة سنة مضت[71].

وهذه القيثارة مصنوعة في شكل جسم حيوان (ثور)، ومضخمة بصفائح من الفضة الرفيعة، الذي أعطاها مع مرور الزمن اللون الرصاصي الهادئ.

وفى المتحف البريطاني بلندن، أعيد بناء القيثارة التي كانت أوتارها قد تآكلت، وتم تركيب الأوتار من جديد والبالغ عددها (11) أحد عشر وترا، التي عرف عددها وأماكنها من خلال الأوتار والخطوط على الغشاء الفضي للآلة.

"وعادت القيثارة كما كانت قبل اكثر من خمسة آلاف سنة وكادت القيثارة أن تنطق بالحان الرافدين"[72]، الأرض التي كلما قامت فيها حضارة جاء من يدمرها ويخربها (من هولاكو إلى بوش)، وفى متحف اللوفر بباريس الكثير من الآلات الموسيقية القديمة

---

71 اور .. مدينة الكلدانيين القدماء في جنوب العراق.

72 مجلة هنا لندن، عدد 6، كانون الأول 1969اف.

الشرقية ذات الزخارف الجميلة المتقنة والتي تعبر عن حضارات الشرق الخالدة.

وفى أفريقيا أيضا توجد مثل هذه الآلات، وذكرنا فيما سبق القيثارة الأفريقية.

وعند قدماء المصريين كانت توجد آلة موسيقية ذات جناحين، وتوجد نماذج من هذه الآلة وغيرها في دار الآثار في برلين – ألمانيا–.

واقدم آلة هندية تم العثور عليها آلة تشبه آلة الربابة العربية، ذات وترين من أمعاء الغزال، وتاريخها يرجع إلى (500) خمسمائة عام قبل الميلاد، وهى مستعملة في الموسيقى الشعبية الهندية للأن.

أما الحضارة المصرية فإنها من اقدم الحضارات في العالم (حوالي ثمانية آلاف سنة ق.م)، ولقد عثر المؤرخون على صور لآلات موسيقية كثيرة مثل الناي الطويل المتعدد الثقوب، وصورة أخرى لآلة الجنك (الهارب)[73]، ومنها نوع عددها 22 وتراً، وهى مصنوعة من العاج والأبنوس[74].

وهناك آلة الأرغول أو الارغن التي لازالت مستعملة في مصر للأن. وكذلك آلة الزمارة المزدوجة وتصنع من الخشب وآلة النفير (البوق) وهى آلة تستخدم للأغراض العسكرية والإشارات الحربية.

إلى جانب الآلات الإيقاعية:

الأجراس – الجلاجل – الطبول – وهى كثيرة الاستعمال في منسبات الحصاد وتحضير المشروبات.

---

73 تم العثور على آلة الهارب بالأهرامات، مقبرة رقم 90، وكانت أوتارها من ليف النخل وعددها خمسة أوتار.

74 وهذه الآلة موجودة الأن في متحف اللوفر بباريس في فرنسا.

وهناك الصاجات النحاسية، والكاسات والمقارع الصنجية، والطبول والدفوف وطبلة الباز.

في عام 1972ف، تم العثور في مصر على اكتشاف أثري جديد بالتلال الأثرية بصحراء البحيرة، عبارة عن صورة لفنان يوناني قديم وهو (ديمرتتيس) وهو يعزف بعض الألحان المصرية كما ظهر في النقش على الحجر الكبير الجيري، وكشفت النقوش المدونة عن أسماء المقطوعات الموسيقية المصرية التي يرددها الموسيقار اليوناني.

وجاء في صحيفة الأخبار:

"أنه بهذا الاكتشاف الجديد نتأكد لأول مرة حقيقة أن اليونانيين تأثروا بالموسيقى المصرية القديمة عندما كانوا في مصر عام 332 ق.م .."[75].

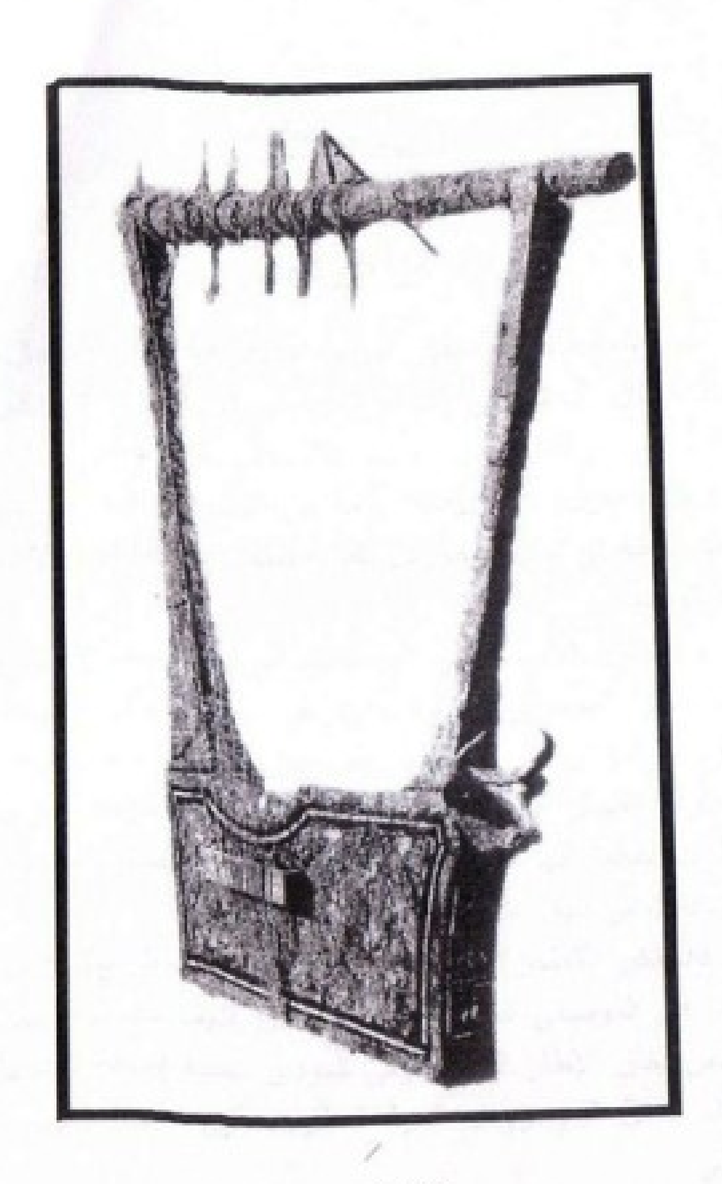
وقد عثرت على هذا الاكتشاف بعثة من خبراء الآثار المصرية بعد بحث طويل في تلك المنطقة.

وصرح خبراء الآثار أن هذا الاكتشاف له دلالة في التاريخ الثقافي والفني والموسيقى، في الحضارتين الهلينية والفرعونية، وانه يفتح ميدانا جديدا لعطاء الحضارة المصرية القديمة[76].

---

75 صحيفة الأخبار عدد 27 أبريل 1972ف.

76 صحيفة الأخبار عدد 27 أبريل 1972ف.



قيثارة ســـومر

المبحث الثالث

فن الارتجال

من جماليات الموسيقى العربية والأفريقية، فن الارتجال، أي اتخاذ الشكل البداتي في الأداء الموسيقى دون إعداد أو تفكير في شكل خاص، ولذلك يمكن تعريف الارتجال بأنه (التفكير والأداء في آن واحد)، نقول: ارتجل فلان كلمة في الحفل، أي أنها غير مكتوبة أو مشروطة في شكل خاص بل تلقائية تعتمد على التفكير والإلقاء في ذات الوقت.

وقد يكون الارتجال في الموسيقى، في لحن موضوع ومعروف، وهنا تتميز الموسيقى العربية والأفريقية بفتح المجال للاضافة من العازف والمؤدى أي أن التعبير الموسيقى الموضوع ليس نهائيا، بل أنه يترك المجال لأي إضافة تلقائية مبتكرة من طرف العازف أو المطرب طالما أنها تضيف جمالا إلى اللحن الأصلي، بل أن هذه الإضافة تعتبر دليلا على قدرة العازف أو المؤدى.

فالمبتكر (الملحن) والمؤدى (العازف أو المطرب) لا صراع بينهما في الموسيقى العربية والأفريقية بل انهما مكملان لبعضهما، فالملحن يخلق الإطار العام ويتولى المؤدى عملية إضافة التفاصيل أو إعطاء العمل الفني روحه الفنية المطلوبة التي تطرب وتريح وتفيد المتلقي.

وتوارثت الأجيال هذا الأسلوب في أداء فن الارتجال، ولعل هذا هو سر بقاء الألحان العربية خالدة، تتجدد روحها وروعتها مع كل جيل، وكأنها قد وضعت في زمانه، ومن ثم اصبح إلى جانب المبتكر

وقد كتب منذ القدم ابن سينا، تحت عنوان (فن الزواق)[78] أي الزخارف والتحليك التي تضفي على الأداء في كل مرة روحا متجددة حية.

وحيث أن هذا الأمر (وهو الارتجال) لا يرتبط بالقدرة لدى العازف أو المؤدى على قراءة النوتة الموسيقية، بل أن يستخدم علمه الموسيقى النظري مع خياله وحضوره ساعة الأداء، وهذا هو ما يجعل التجدد في الأداء فلا يمكن أن نستمع إلى عمل واحد مرتين بنفس الإحساس أو الطريقة إذا ما أداها نفس الفنان، بل نجد اختلافا وإضافات جميلة مبتكرة، تدل على الخبرة والزخرفة الفنية.

وتمثل هذه الزخارف المرتجلة، من عازف مفرد أو مجموعة عازفين ومطرب أو مجموعة منشدين، تمثل مصدرا من مصادر المتعة الفنية للمستمع الذواق الذي يطرب هذا الإبداع وهذه الإضافات والزخارف الرائعة.

ومن ابرز ما يحب المستمع العربي والشرقي عموما من فن الارتجال التقاسيم بنوعيها:

التقاسيم الحرة، والتقاسيم المقيدة بإيقاع.

والعازف المرتجل أو المؤدى المرتجل، هو كمن يواجه امتحانا صعبا لعرض معارفه الفنية، فهو مطالب بأن يبتكر بعفوية، جملا لحنية مقنعة، وأن يتصرف فيها بالتحول من مقام إلى آخر بشكل أنيق وشيق ورشيق.

78 ابـن سينا، كتاب النجاة، الفصل الخاص بالموسيقى (وهو تلخيص لما ورد في كتاب الشفاء)، وهو من مخطوطات مكتبة الأزهر، القاهرة، ص 248-256.

وهو مطالب بعد رحلته بين المقامات الموسيقية بالآلة أو بالصوت الغنائي، بأن يعود إلى المقام الأصلي الذي بدأ منه، وذلك بشكل مريح ومحبوك وهو ما يسمى (القفلة).

ولذلك تعتبر هذه التقاسيم أو الأداء الغنائي بمثابة بحث مجرد في آفاق الجمال الموسيقى يستلهم فيه الفنان نفس الروح التي تلهم الفنون التشكيلية الإسلامية في تقسيم كل فراغ، كما في جدران المساجد الداخلية، والأبواب أو أغلفة الكتب والمجلدات، وذلك بتقسيم كل فراغ إلى رسوم هندسية مجردة ومتداخلة.

وهكذا يتحول من الزخرفة إلى جزء لا يتجزأ من صميم تكوين هذا التقسيم للفراغ في الفنون التشكيلية الإسلامية، وهو نفس التقسيم للزمن في الفنون السمعية الموسيقية والغنائية.

ونستطيع أن نلخص فن الارتجال الموسيقى في أنه: الاندماج التام بين الحرية الفردية والعرف الموسيقى (لأن العرف السائد والتقاليد الفنية المتوارثة هي التي تحدد إلى حد كبير افضل القفلات الموسيقية الغنائية) وبين الابتكار التلقائي والارتباط بالتقاليد، وهى في ذات الوقت تعتبر إضافة ذاتية، دليلا على القدرة والخبرة والموهبة المتميزة.

وقد أخذت الموسيقى الغربية فن الارتجال الموسيقى عن الموسيقى العربية، فقد كانت له أهمية خاصة في العصور الوسطى بل أن فن الارتجال هو الذي أوحى بظهور فن (البوليفونية)[79] الذي اصبح فيما بعد مميزا للموسيقى الأوروبية.

---

79 البوليفونية: هي فن تكثيف النسيج الموسيقى بإضافة مجموعة الحان تمتزج باللحن الأصلي.

وكذلك موسيقى الآلات جاءت عن طريق فن الارتجال مثل البريلود (المقدمة) والفانتازيا والتوكاته Toccata[80] وكذلك كان للارتجال أثرا في ظهور (الصوناتا) Sonata بالآلات الوترية إذ كانت ألحانها لا تكتب كاملة بل الهيكل ويكون على العازف ابتكار الإضافات من عنده كل مرة، وكذلك كان ارتجال الزخرفة والتحليات أمرا مشروعا، بل مطلوبا من العازف.

وكان على مغنى الأوبرا أن يرتجل فقرات غنائية زخرفية طويلة في أغاني الأوبرا الانفرادية وهو تقليد لازال قائما لحد الآن في الموسيقى الأوروبية.

واستمر الارتجال في الموسيقى الأوروبية حتى القرن السابع عشر (موسيقى عصر الباروك) وحتى أوائل القرن الثامن عشر.

وظل عازفو آلة البيانو يمارسون الارتجال بطلاقة حتى عصر بتهوفن (في أوائل القرن التاسع عشر)، كما كان العازفون المهرة يرتجلون (الكاونسات)[81] في الكونشرتو.

واجمل ما يمكن أن نسمعه اليوم من تراث الموسيقى الغربية، كان يعتمد على فن الارتجال المأخوذ عن موسيقانا العربية والشرقية.

---

80 التوكاتة: تقاسيم للآلات، واسمها مستمد من مصدر اللمس (توكاري).

81 الكاونسات: فقرات التقاسيم الارتجالية الحرة.



الهارب.. أقــدم آلة عرفتها الحضارة المصرية القديمة..

المبحث الرابع

إعادة البناء الحضاري

في هذا العصر، الذي نستطيع أن نقول عنه عصر تقدم الإنسانية إلى الخلف فبالرغم من الدخول للقرن الحادي والعشرين، إلا أننا نرى العالم يعيش في ديماغوجية العصور الوسطى، الحروب والدمار، وانتشار الأمراض والتعصب الديني والتفرقة العنصرية وغيرها من مخلفات العصور السابقة تعود إلى العالم من جديد".

في هذا الوقت كيف يكون لنا أن نعيد بناء الإنسان العربي والإفريقي بناءاً حضارياً جديداً؟

لا شك أن ذلك يتطلب صراعاً فكرياً وبالصراع تتحدد المواقف ويتحرك التاريخ، الذي لا يوقف مسيرته شيء.

ومجالنا في هذا الصراع هو الفن والأدب والثقافة، فيجب أن تكون لدينا معايير، نحكم بها على المجال في الفن وعن التذوق في الفن والأدب والثقافة، فطالما أن الأدب والفن هدفهما الاجتماعي واحد وهو أنهما تعبير عن الفكر والأحاسيس والوجدان ويعبران عن التجربة البشرية بالكلمة والنغمة والإيقاع، ولكل منهما مادته التي يستخدمها، فالأدب مادته اللغة، والموسيقى مادتها الصوت والزمن، والنحت مادته الكتلة، وهكذا.

بل أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين الفنون والآداب فالشعر والموسيقى والرقص والتمثيل فنون متشابكة، والتمثيلية تستعين بالموسيقى، وبالفنون التشكيلية يستعين المسرح والبرنامج المرئي، والخيالة تندمج

فـيها الفنون جميعاً، هذا مع وجود ذاتية متميزة لكل فرع من فروع هذه الفنون.

ورغم تطور كل فرع من هذه الفروع إلا أنهما يلتقيان في النهاية دائماً:

- فقـد نشأ الشعر والرقص والموسيقى في وقت واحد، ثم تطورت الموسـيقى عنهما، وبعد ذلك تطور الرقص حتى وصل إلى فن جديد هو فن الباليه" فالتقيا في الموسيقى المصاحبة لهذا اللون من الفن.
- وتطـورت الموسـيقى أيضاً عن الشعر، ثم تطور الشعر أيضاً والتقـيا فـي فن جديد آخر هو فن الأوبرا والملحمة والأوبريت والقصيدة الغنائية بالفصحى.
- والعلاقـة واضحة بين الأدب والفنون التشكيلية، وتتضح لنا من خـلال رسومات مقامات الحريري، ورسومات كتاب الحيوان – للجـاحظ– ورسـم كـتاب الأغاني، وكتاب كليلة ودمنة– لابن المقفـع– ولا زالت العلاقة مستمرة في الرسوم المتحركة، وفي الإعلانات، وفي أغلفة الإصدارات الأدبية،
- فالعلاقة دائمة ولن تنقطع بل تتطور مع كل تطور اجتماعي.

ورغـم مـا فـي بلادنا –الجماهيرية العظمى– مثلاً من أدباء وشـعراء وكتاب، فإننا لا نجد منهم من يشارك أو يُنّمي هذه العلاقة بين الأدب والفن، بما فيه صالح المجتمع.

فمـا زال أدباؤنـا ينظـرون إلـى الإذاعة المسموعة والمرئية الخـيالة، نظـرة تجاهل وغطرسة، فهم لا يكتبون للإذاعتين البرامج والتمثيليات، ومنهم من يستهزئ حتى بالأدب الشعبي (تراث الشعب) الأصـالة، فيصـف الشـعر الشـعبي بأنه " طاولة كسّر"، ويتطاول

الفيلسوف بوصفه بأنه (كلام فارغ)!! والحقيقة أن من جهل شيئاً عاداه، وهناك من البشر من هم في مرتبة الذين يحملون أسفاراً .!!!

إن أغلب أقطارنا العربية والأفريقية، بها عدد مأهول من الأميين الذين لا يقرأون ولا يكتبون ولهذا فالبرنامج الإذاعي والتمثيلية والمسرحية والأغنية الاجتماعية والوطنية والدينية والقومية والعاطفية كل هذه وسائل لنشر الثقافة والتوعية الاجتماعية.

إلى جانب أن الفنون والآداب من أهم وسائل رفع مستوى الوعي والتذوق والإبداع، وغرس القيم والمثل في نفوس أبناء الأمة، وترسيخ الولاء للوطن وتقديس الحرية والعدالة الاجتماعية.

فإقامة المهرجانات الفنية للفنون الموسيقية والشعبية هو فخر للدولة والمجتمع، وهو دلالة على الارتباط بالتراث والأصالة ، وهو كفاح ضد الغزو الثقافي والعولمة، وهو عملية ري لجذور الأمة وحضارتها لتبقى راسخة على مدى الدهر في أرضية نفوس الأجيال اللاحقة التي ورثت هذا التراث الخالد عن الأجداد الذين تركوا لنا كنوزاً من التراث الأدبي والفني والثقافي، وعندما وصلت هذه الكنوز إلى الأوروبيين والأمريكان وعرفوا قيمتها وقدروها حق قدرها وصلوا إلى القمر والسيطرة على العالم .!!

ومن يقول بعدم جدوى هذه المهرجانات أو يتعالى على حضورها لأنه يحمل ورقة مكتوب عليها حرف (دال) قبل اسمه ، فإنه وللأسف يستحق أن يوضع أمام اسمه الحرف (السادس) من الحروف الهجائية ولكن التذوق والفهم لا يقاس بالمؤهلات العلمية، ومن مصائبنا أن هناك من فصلتهم المؤهلات العلمية عن أصالتهم وروح مجتمعهم وعاداتهم وتقاليدهم فأصبحت الشهادة العلمية العالية بالنسبة لهم كشهادة (الوفاة) " بالنسبة لنا.

فالإنسان الذي يستحق أن يوصف بالأديب أو الفنان أو المخطط في المجالس المخصصة لتنمية الإبداع والثقافة، هو الذي يشارك بمؤلفاته وكتاباته وموسيقاه وشعره في خدمة مجتمعه، وهو الذي يؤمن بأن الفن والأدب رسالة اجتماعية وطنية مقدّسة، وهو الذي تزداد معرفته كل يوم بحرفية الفنون والآداب حتى يزداد كفاءة وعطاءاً، وهو الذي له القدرة على دمج الفنون المحلية بخبرات فنون الأقطار الأخرى بما لا يلمس الأصالة ولكنه يخلق الترابط والمودة بين الشعوب، وهو الذي له القدرة في الحديث عن الفن والأدب في الندوات والمحاضرات، فهذا دليل على التكامل والثقة بالنفس.

أما الذي يرى في الفنون عيباً يمسه، ولا يناسب مستواه الثقافي، فهذا ناقص " وإذا أتتك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كاملٌ".

ونستعجب كيف يكون هؤلاء أفراداً في المجتمع وينكرون تراثه وأصالته، هذا المجتمع الذي صرف عليهم آلاف الدينارات حتى أعطاهم حرف (الدال).

فهل يريدون الانتفاع والاستمتاع بخيرات المجتمع دون بذل أي جهد من أجله.

وأخيراً أقول لهم أن الأدب والفن والثقافة، وعي علمي، ومسؤولية اجتماعية، والتزام جاد، وعمل ومشاركة اجتماعية، وحكمة وأخلاق وتضحيات، وأن مكونات الأدب والفن والثقافة أولاً وأخيراً ما هي إلا تراث ، والتنكر لهذا التراث أو الاستهزاء به، قمة التفاهة!! والخروج من دائرة الأرض والوطن...!! وأود أن ألفت النظر إلى أن الفن علم، والعلم والفن يتمتعان بنفس الأهمية في حياة الإنسان.

- فالعلم يغير العالم من أجل أن يغير الإنسان ويرفع من مستواه الفكري والثقافي والمعيشي.
- " والفن يغير وجدان الإنسان ليتمكن من تغيير العالم"[82].

وأن الذي ينظم المشاعر والعواطف والانفعالات هو الفن وهو هنا بالضبط كالعلم الذي يهدف إلى الوحدة بين القوانين والظواهر عن طريق الموسيقى حقق الكثير من عباقرة الموسيقى الوحدة بين المشاعر وأستمع إلى " أخي جاوز الظالمون المدى" أو أنشودة " الله أكبر فوق كيد المعتدي" وغيرها الكثير ... وهكذا في الشعر لهذه الأعمال وغيرها، فالفن والعلم ليسا أسلوبين مختلفين للوصول إلى هدف خدمة المجتمع – إنما هما أسلوبان تتكامل بهما المعرفة والتقدم.

- وما قلته، عن دعاة الفكر والأدب في بلادنا ما هو إلا مثال عن الآلاف من المستغربين الذين كانوا سبباً في اندثار فنوننا وتراثنا وآدابنا، بهذا فنحن في حاجة إلى إعادة صياغة للإنسان في أقطارنا العربية والأفريقية، وهذا يتطلب تغيير ثقافي جذري، وصناعة ثقافة، فهي صناعة الصناعات. بل التي تصنع من يصنع الصناعة، وهو الإنسان، وهذا أهم من الصناعة.

إننا في حاجة إلى القيام بعملية مسح وإعادة بناء ، من أجل اقتلاع المعوقات لحركة التقدم الفني والثقافي، وخلق جو صحي صالح لنمو القيم الأصيلة، التي تؤمن بأن العرب هم أصل وأساس الحضارات الفنية والأدبية وأن الأفارقة هم أساس الثقافة الاجتماعية الفنية العالمية المتميزة، وأن العرب والأفارقة قد ظلموا عبر التاريخ

---

(82) من أقوال كورويل، الكاتب الفرنسي الشهير.

من العالم الغربي وأن خبراتهم وعلومهم وفنونهم وتراثهم هي أساس ما تنعم به أوروبا وأمريكا من تقدم ورخاء...

فـنحن لا نتكلم عن الآداب والفن فقط، بل العلم أيضاً، وكافة معـالم الحـياة الأخلاقـية، والتشـريعية والإداريـة والاجتماعـية والاقتصادية والسياسية والثقافية ...الخ.

وهـذا دلـيل على أن الفنون – وهذه حقيقة- كانت وراء كل حضارة ، بل هما أساس الحضارات ، لأنها دليل على التاريخ، وعلى الاسـتقرار ، وعلى التقدم ... فما قالوا عن العصر العباسي العصر الذهبـي إلا لأن الفـنون كانت مزدهرة ومتقدمة وكذلك الآداب، وما قالـوا عن عصر النهضة في أوروبا في القرن التاسع عشر ذلك إلا لازدهـار الفـنون والآداب، وشيوع نور الثقافة الذي بدد ليل الجهالة والتخلف.

ومـا أعنـيه هـنا ليست الثقافة البشرية، التي تعبر عن جوهر الإنسان، ككائن يعمل ويفكر ويحلم ويكره ويحب فحسب، بل ما أعنيه هو الثقافة القومية الخاصة بكل قطر ، والتي تميزه عن غيره، والتي تشكل أصالته وأساليبه في ممارسة الحياة.

ولا شـك أن هـذه الثقافة القومية هي نتاج التلاحم بين الثقافات العربية والأفريقية، بالتبادل عبر التاريخ.

فأقطارنـا العـربية والأفريقية ، لها تاريخ واحد مشترك برغم الحدود التي وضعها الاستعمار لتسهل عليه السيادة.

فالاسـتعمار لم يمنحنا فقط ثلاثية (الفقر والجهل والمرض) ولم يكـتف بمـوت الملايين من أجدادنا جوعاً وقهراً، بل منحنا صفات أهمها:

الاغتـراب عـن الذات، وانقسام الشخصية، وردم ينابيع الفكر، وقـتل روح الإبـداع والابـتكار، ونشر الرذيلة، وتدمير المكتبات،

وحـــرق آثارنا ومأثوراتنا ومقتنياتنا، وطمس معالم حضارتنا وتزوير تاريخنا، ونكران فضل العرب والأفارقة على أوروبا وأمريكا بما هي علــيه اليوم من تقدم يرجع في أصوله ومصادره ومراجعه إلى الفكر العربي والأفريقي في الفنون والآداب والعلوم.

ورأيــنا فـــي الفصـــول الثلاثة لهذا المطبوع بالإثباتات والأدلة التاريخية، وشهادات المستشرقين، والباحثين من الغرب مدى استفادة الغـــرب فـــي العلـــوم الموســيقية النظرية والعملية وصناعة الآلات الموســيقية وكــتاب النوتة ونظريات التوزيع الهارموني والإيقاعات وأساليب الغناء وكتابة الشعر، وموسيقى الجاز...

فهل لنا أن نعيد الثقة في أجيال أقطارنا العربية والأفريقية ، بأن نوضـــح لهـــم بالـــبحوث والمطبوعات والمناهج الدراسية، والبرامج الإذاعـــية المســـموعة والمـــرئية " بمختلف اللغات" أنهم أحفاد أولئك العباقرة الذين وضعوا أسس وأصول وقواعد هذه الفنون.

إن ذلـــك ســـيكون بحق مساهمةً فعالة في إعادة بناء الإنسان العربي والأفريقي بناءاً حضارياً جديداً.

فهل نستطيع أن نحقق هذا؟

لنبدأ الصراع الفكري من أجله.



الزكرة عربية أفريقية.. أخذتها أوروبا وأمريكا وأنشأت بها فرق القرب الموسيقية المعروفة.

أوحت للأوروبيين بإبتكار آلة الأكورديون من حيث حفظ الهواء

الخاتمة

عندما عارض الاوروبيون الرأي القائل بأن للعرب تأثير واضح، بل هم الأصل في الأدب الغنائي الأوروبي، قام المستشرق (أ.ر. نيكل NYKL) بنشر ديوان (ابن قزمان) كاملا بالحروف اللاتينية، فاثبت لهم بذلك أن شعراء (التروبادور)[83] الفرنسيين، وهم أول من استخدم الشعر الغنائي في أوروبا، لم يفعلوا اكثر من انهم قلدوا ما كتبه شعراء الموشحات والزجل في الأندلس، وذلك منذ اكثر من مائتي سنة مضت.

والمعروف أن الشعر العربي، هو عربي خالص، ولم يأت نتيجة تراجم أو غيرها كالعلوم الأخرى، فهو لم يتأثر بأدب حضارات سابقة فهو فن العرب الأصيل.

وفى 26 يناير 1919 أعلن المستشرق الإسباني (اسين بلاسيوس) في خطاب استقباله في الأكاديمية الملكية الإسبانية أن (دانتى)[84] قد تأثر في الكوميديا الإلهية بمصادر إسلامية، وما تصويره للجنة والنار، واهم مصادره معراج النبي محمد صلى الله عليه وسلم ورسالة الغفران للمعرى.

وبذلك يكون اكبر شعراء إيطاليا، والشاعر الأوروبي الأول كما يسمونه، قد اخذ مصادر أروع ما كتب من العرب والمسلمين.

---

83 التروبادور: مصدره عربي وهو مركب من كلمتين (دور-طرب) وبتقديم الصفة على الموصوف في الترجمة انقلب اللفظ واصبح (طرب-دور) Troubadour، وهذا ما أكده المستشرقين الذين بحثوا في اصل الغناء الأوروبي.

84 كان دانتى يقول أن الشعر الإيطالي قد ولد في جزيرة صقلية التي يحكمها العرب.

وكانت فكرة الحب النبيل قد تناولها (ابن حزم) في طوق الحمامة قبل أن يتناولها الأوروبيون بمئات السنين، واعترفوا بذلك.

والقصص الشرقية ومنها: كليلة ودمنة، وقصة السندباد، وكتب المواعظ والأمثال، فهي التي أثرت في الآداب الأوروبية، وفي مقدمة القصص الفلسفية قصة (حي بن يقضان) لابن طفيل (1085) والتي تهدف إلى التوفيق بين الفلسفة والدين، وتم ترجمتها إلى الإنجليزية عام 1671ف.

ومن الأدلة الدامغة أنه (ليس بين أدبائهم نابغ واحد قد خلا شعره أو نثره من بطل إسلامي، أو نادرة إسلامية) من شكسبير واديسون وبيرون وكولريدج وشيلي من أدباء الإنجليز، وجيتي وهردر ولسنغ وغيرهم من أدباء الألمان، وفولتير وفوتسيكو وهيجو ولافونتين من أدباء الفرنسيين[85].

وتأثرهم واضح بالقصص الشرقي المعروف (ألف ليلة وليلة) فما رحلات (جليفر) أو (جلفر) ورحلات روبنسون كروزو إلا امتداد وتأثر بالقصص العربي في العصور الوسطى.

وما مفكري الأندلس اللامعين في القرن الثاني عشر مثل ابن باجه الذي مات مسموما عام 139ام، وابن رشد المتوفى عام 1198 ف، الشارح الأعظم لكتب أرسطو والذين ترجمت كتبهما إلى العبرية واللاتينية، فهما من العرب ولهما الفضل في التأثير في (البير الكبير) (وتوما الاكويني) الذين وفقا بين فكر أرسطو والعقيدة المسيحية بعد

---

85 تناول هذا الموضوع كل من:

- أ. عباس العقاد: اثر العرب في الحضارة الأوروبية.
- د. عبد الرحمن بدوي: دور العرب في تكوين الفكر الاوروبي، بيروت 1965ف.
- د. سمير القلماوي: اثر العرب والاسلام في النهضة الأوروبية.

قراءتهما لما كتبه ابن رشد عن التوفيق بين فلسفة ارسطو وعقيدة الإسلام.

أما في مجال الموسيقى والغناء، فمعاهد الموسيقى التي انشأها العرب في الأندلس والبعثات الطلابية التي درست في هذه المعاهد خير شاهد على أن ظلام أوروبا لم تنره إلا العقول العربية.

وما أثبته مجموعة من المفكرين والباحثين الغربيين الذين قارنوا بين امثلة من الشعر الفرنسي (الغنائي) والشعر الألماني[86] والإنجليزي والإيطالي والبرتغالي والإسباني، مع ما استحدث في الأندلس من نظام أشعار الموشحات والأزجال، مبرهنين بهذه الأمثلة ومستشهدين بها علما أن ما استجد في أوروبا من أوزان الشعر الغنائي إنما كان انعكاسا لما احتوته الأندلس من هذه الألوان المبتكرة، وقد اثبت هؤلاء المستشرقون بعض قوالب القصائد المسماة (بالآد) La Ballade والأغاني العاطفية (كرتويس) La Chanson Courtoise ، وقصائد وأغاني التروبادور Ttroubadour.

ويطلق في أوروبا للآن لفظ أرابيسك Arabesque على نوع من المعزوفات الموسيقية التي تعتمد على الزخارف والتحليلات الموسيقية العربية، والزخارف والتحليلات لا يتميز بها في العالم إلا الشرق وذلك في فنون الموسيقى والنسيج وفن الرسم والفنون التشكيلية عموما.

---

86 من هؤلاء المستشرقين: غومس، دوزي، كوين، برفنسال، ريبيرا، وغيرهم .. ووردت الإشارة إليهم في المرجعين السابقين:

- د. سيجريد هونكة: شمس الله على الغرب فضل العرب على أوروبا.
- د. محمود الحفني: زرياب موسيقار الأندلس، ص 161.

وكاد أن ينعقد الرأي عند جمهرة المستشرقين في القرن التاسع عشر، على الاستخفاف بدور العرب في بناء الحضارات الإنسانية، وأن العرب لم يُخلقوا للتفكير الأصيل وللخلق والابتكار والإبداع.

ولكنهم أخيراً وجدوا منهم من يسفه هذه الآراء ويثبت الحقيقة، وهو الباحث المستشرق (جورج سارتون)[87] الذي نبه إلى أن الحضارات العربية والإسلامية والمعجزة العربية في عصر الإسلام الذهبي هي التي طورت العالم، وقال:

"ما حققه العرب في المجال العلمي والثقافي يكاد يتجاوز حد التصديق".

والآن اصبح ذلك واضحا، وبتأييد من كل المنظمات الدولية ومن هيئة اليونسكو (منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة) التي أقامت مؤتمرا ألقى فيه الأستاذ (كويلر يونج) (Cuyler Young)[88] بحثا عن (اثر الثقافة الإسلامية في الغرب المسيحي) (الفنون والعلوم وفلسفة الحياة).

وأخيراً ...

فقد رأينا كيف استفادت أوروبا من محافظة العرب على تراث كل الحضارات القديمة وما أنتجته الحضارة العربية الإسلامية، ذلك لأنهم أرادوا أن يضيئوا ليل جهالتهم.

---

87 جورج سارتون George Sarton The History Of Science And The New Humanism. 1956 P. 73-75-87.

88 هو رئيس قسم اللغات الشرقية وآدابها – بجامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية – وبحث:

The cultural contribation of islam to Christendom ونشرت في كتاب بالعربية (الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، محمد خلف الله احمد، القاهرة، 1955م).

فحين استرد النورمانديون صقلية، واسترد ملوك أسبانيا بلادهم، ابقوا على الحضارة العربية في بلادهم، ولم يفعلوا ما فعله المغول حين غزو بغداد عام 1258ف، والقوا بالمخطوطات العربية في نهر دجلة، الذي اسودت مياهه من أحبارها، وهو ما تفعله أمريكا وبريطانيا الآن من حرق وتدمير للمكتبات والمتاحف والتراث والمأثورات في القرن الحادي والعشرين (2003ف)!!

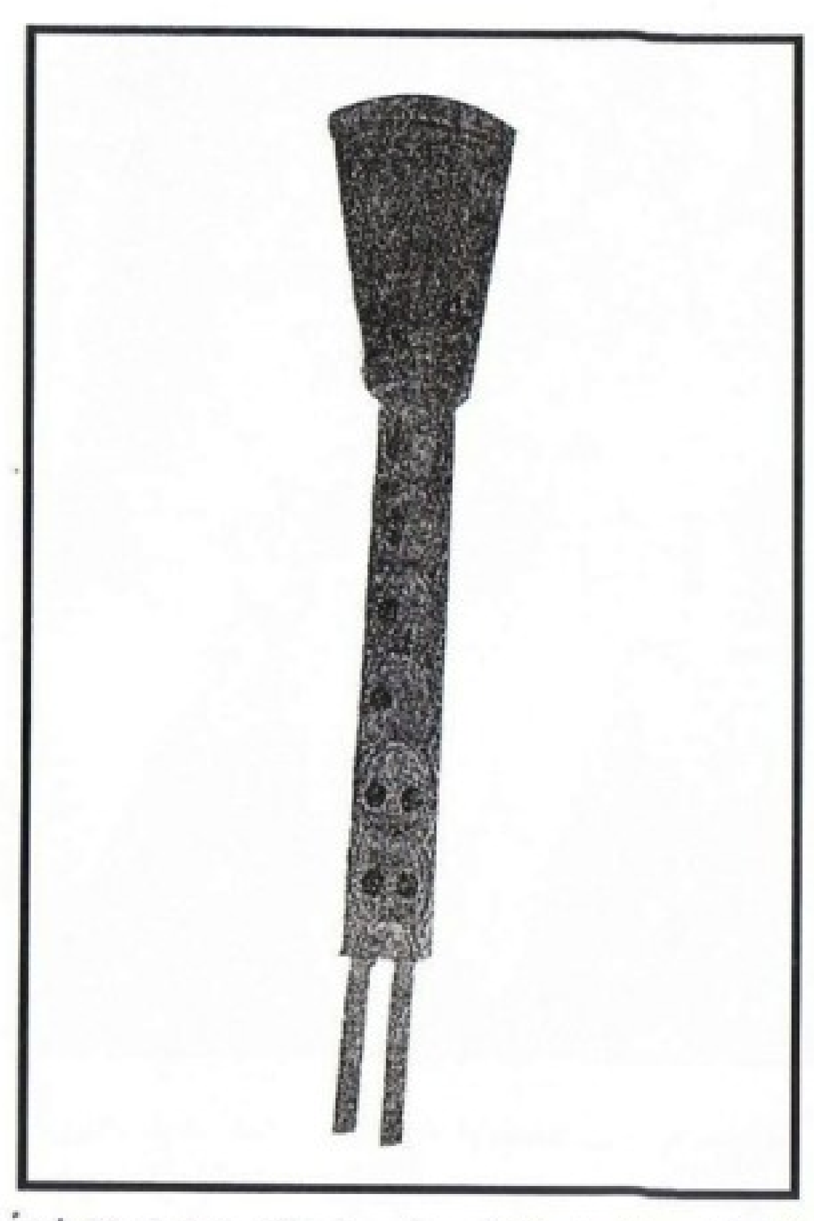
وسبق أن فعلت تركيا أيضا هذا حين غزت القاهرة وخربوا مكتبة العزيز بها عام 1068ف واحرقوا مائتي ألف مجلد (200,000 مجلد) استخدمها الضباط وقودا لمنازلهم، واستعملوا أغلفة المخطوطات الثمينة المصنوعة من الجلد لإصلاح أحذية جنودهم وعبيدهم!!!

فمتى تستفيق الجهات الرسمية في الأقطار العربية والأفريقية وتقيم المراكز المتخصصة للبحوث والدراسات في الفنون والآداب والثقافة والعلوم، لتعرف الأجيال العربية والأفريقية اللاحقة مدى تأثير حضارة العرب والحضارات الأفريقية في عالم الغرب، وأن اصل الفنون الأوروبية عربي وأن الجاز أفريقي وأن الأقنعة الأفريقية أفريقية المنشأ وأن العرب والأفارقة هم أساس الحضارات، وما أوصلهم إلى الفضاء إلا العلماء العرب وبحوثهم، فهل من أمل؟!!

في مجمع الموسيقى العربية، بجامعة الدول العربية، ووزارات الثقافة، ومراكز دراسات وأبحاث الموسيقى.

.... لننتظر!!

فهرس



آلة زمارة، وصلت من بلاد العرب إلى يوغسلافيا، وتستعمل هناك أيضاً في الأفراح وأوقات فراغ الرعاة



مجلس تنمية الابداع الثقافي

المقر الرئيسي / بنغازي هاتف: 9082002-9082003-061

بريد مصور: 9082004-061 ص.ب 9351

بريد الكتروني : Lcc@mail.Lttnet.net